أشياء للذكرى



محمد عبد الحليم عبد الله

أشياء للذكرى

وقصص اخرى

محمد عبد الحليم عبد الله

أشياء للذكرى

وقصص أخرى

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

أشياء للذكرى

كان ذلك فى الشباب الباكر والعمر لا يزال فى أول عقده الثالث ..

لما مات أبى وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى رأيت أمى تترنح من شدة الصدمة . وبدا منظرها وهى فى ثياب الحزانى تنظر إلى أطفالها بعينين مفكرتين وأهدابها مبلولة — كأنه لسان متلعثم يدعونى إلى عمل شىء .. شىء لا نعرفه على وجه التحديد لكنه حيوى على الرغم من أنه مجهول .

وفى هذا المساء وصل إلينا خالى من الريف ليسأل عنا ، ووصلت بعده من المحطة عربة نقل تحمل سمنا ودقيقا . وأثارت خبطته على الباب أشجانا كثيرة لأنه ذكرنا بخبطة أبى . وبعد أن تكلمنا فى شئون المعيشة انتقل حديثهما إلى شأن آخر كان أعظم وأخطر وأبعد أثرا فى حياة الأسرة ، وذلك هو شأنى أنا .

وأحسست أنى وقعت بين شقى رحا حين التقت على وجهى نظرات أمى وخالى . كانت نظرة أمى إلى صلاحيتى للعمل ممزوجة بشك ورثاء ، أما نظرة خالى فقد كانت شكا خالصا ، وربما مشوبة بشىء من التصغير الذى يضمره كل مكافح لكل متقاعد .

وقررت فى هذه اللحظة التى أحسست فيها بنظراتهما أن أثبت صلاحيتى لأى عمل حتى ولو كان جسمانيا صرفا كعمل الحمالين فى المحطة . ولست أغالى فأدعى بأن الموقف كان موقف تضحية وحب لأن حقيقته فى هذه الليلة لم تزد على أن تكون كرامة شخصية تحرسها سن الثامنة عشرة الفتية .

* * *

وكان خالى مقاولا متوسطا فضمنى لأعمل معه بالأجر .. ولأتعلم ! ..

و لم تحزن أمي حزن الأمهات التقليدى إذا انقطع الأبناء عن المدارس لأننى كنت لا أشجع على التعليم .

وكان بدء الحياة قاسيا بالنسبة لى لأن أعمال خالى لم تكن فى المدينة .. كانت فى الريف .. حيث الأرض الواسعة التى لا يتعثر فيها البصر إلا إذا اعترضته شجرة . وتدور الأعمال حول شق الترع أو المصارف أو تطهيرها . ومعظم ذلك فى فصل الشتاء .

لكننى — شيئا فشيئا — ألفت الحياة الجديدة .. وكان مصدر الترفيه عنى فيها هو أننى شعرت بامتيازى بين من أعيش معهم ، وذلك يجعل المرء يرضى عن حياته حتى ولو كان فى سجن . ورأيت بلادا ووجوها وأشخاصا لا حصر لها . ومضيت ليلى فى أماكن تمنيت أن أقضى فيها بقية عمرى ، ومضيته فى أماكن خشيت على نفسى فيها الموت ..

وكان عملنا فى إحدى مديريات الوجه البحرى فى الموسم الماضى ، فى منطقة يبدو على أرضها التعب ، وتذكرت رقعتها التى يلون الملح سطحها فى عدة مواضع بوجه امرأة ريفية عارية سيئة الغذاء مريضة بـ « البلاجرا » . وقد بذل الفلاحون فيها مجهودات فردية لم تغن شيئا حتى تقرر إنشاء شبكة من المصارف فيها .

وكنت كبير المشرفين على العملية لحساب خالى ، وكانت حدود عملنا تنتهى عند قرية صغيرة كلها خصب ونعمة . وكانت هذه القرية هى الحد الفاصل بين الجدب والخصب ، ومنها كنا نشترى حاجاتنا ونحمل الماء النظيف.

وقامت على خدمتى فى الخيمة التى أستريح فيها امرأة عجفاء فى حدود الخمسين . اخترتها من بين العاملات لأننى اطمأننت إلى وجهها الطيب .

وكانت يداها المعروقتان قادرتين على تقـديم كل شيء نظيفـا فى حـدود الإمكان .. وكانت القرية القريبة التى تتعلق بها أبصارنا وقلوبنا لأنها حدود انتهاء العمل . ويوم نبلغها سيستريح كل متعب ويرجع كل غريب .

وتخلفت فى الصباح التالى فأحسست نحوها بشىء من التذمر . ولكننى فوجئت بعد قليل بفتاة فى مقتبل العمر تقف عند باب الخيمة وتقول والحياء يعقل كل شىء فيها :

ــ أمى مريضة وقد أرسلتنى لأرى هل تحتاج إلى شىء ؟

وجلست عند الباب تنتظر . وكنت مشغولا مع بعض الرجـال فى حسابات ومشاكل فلما ألقيت إليها باهتمامى أعجبنى أنها صورة من البيئة . كانت مثل هذه الأرض المحتاجة إلى إصلاح ، الخصبة فى مواضع ، المجدبة فى مواضع . غير أن طابع البساطة والطيبة يغلب عليها كما غلب على أمها .. وسردت لها موجز حاجاتى وتركتها وانصرفت لأننى كنت مطالبا بأن أمر على مساحة من الأرض لا يقل طولها عن خمسة كيلو مترات . لكننى وأنا فى الطريق تذكرت شيئا تافها وبطريقة غير عادية .. تذكرت أننى لم أسألها عن اسمها .

ولما رجعت عند الظهر وجدت كل شىء على الصورة التى طلبتها . وقبل المساء عادت إلى القرية ولم تنس أن تسألنى قبل إنصرافها بوجه مطرق وصوت خافت : هل أريد شيئا ؟ !

وفى ضحى اليوم التالى توقعت أن تعود .. أن تعود الأم .. لكن الفتاة هى التى جاءت .. وكانت علامات القلق بادية على وجهها الصغير المستدير الأبيض إلى حد يجعل القلب يشفق عليها . وعندئذ سألتها عن شيئين معا : عن إسمها وعن حالة أمها المريضة بالملاريا .

ولما انصرف الرجال بقيت وحدى فى الخيمة وكانت هى على مقربة منى تقضى بعض الشئون فى جو مارس المشرق الباسم.. وكنت إذا أردت أن أرى فعل الربيع بهذه المنطقة لا أنظر نحو الشمال لأن الأرض هناك جرباء فيها بياض الملح وسواد التربة اللهم إلا بعض أشجار تفرقت على الطرقات المتعرجة فى غير نظام . أما نحو الجنوب حيث تقع قرية الفتاة وحيث ستنتهى عملية الحفر فإننى كنت أرى بشاشة الريف وفعل الربيع فى ربوعه خصوصا على السور النباتى الأسود القائم حول إحدى حدائق الفاكهة .

وأحسست أنها تشعر بنظراتى وأن مثل هذا الموقف لم يكن فى حسابها من قبل . ولعلها لم تكن مقدرة أن تلتقى بشاب مدنى النشأة يعرف على الأقل كيف ينظر إلى الفاتنات ، ثم أخذت أسألها عن أشياء شتى .. أسئلة يجمع بين وحداتها مناسبات تافهة المقصود منها وصل حبل الكلام . ولم أكن أقصد إلى شىء أبعد من معرفة تلك النفس الطيبة والشخصية البسيطة كما يحلو لنا أن نحاور الأطفال حين يدخلون علينا حجرات الاستقبال ونحن ضيوف فى بيوت آبائهم .

سألتها عن أغنى رجل فى القرية . وعن أصناف الفاكهة التى تزرع فى الحديقة البادية لأعيننا ، وذكرت لها بهذه المناسبة أننى شممت فيها رائحة « التمرحنة » من شجرات عند أقدام السور . وعلمت منها أن أباها ميت وأنها أكبر أخواتها وأنها تعمل كما يعمل الرجال . ونسيت بعد يومين أو ثلاثة أن أحدا قبلها كان يقوم بشئونى . وخلقت فى جو عيشى المؤقت نوعا من الأنس يشبه الأنس الهادىء الذى يخلقه هرير القطة فى فراش الغلام .يرجع ذلك إلى الهدوء فيها والتمسح المطمئن .. تمسح الطيبين الذين يظنون الخير بكل الناس ويقولون لهم كل شىء بسرعة حتى للمسافر معهم فى القطار إذا أمنوا له

وركنوا إليه ! .

وكان يخيل إلى لدقة جسمها ونماء عودى أننى قادر على أن أحملها تحت إبطى . وأتخيلها تبتسم وتناجى وتتسمح فى صدرى مثلما تفعل القطة . وصار ميلى إليها مشوبا بالخوف عليها كأننى أخشى على شىء أن يتحطم .

وبدل أن تحمل إلى أنباء أمها فى اليوم السابع حملت إلى شيئا لم يخطر على بالى ، حملت إلى مع الزبد والبيض والغسيل النظيف قدرا من أزهار « التمرحنة » ، ولما نظرت إليها متسائلا أجابت ببساطة من يفسر عملا طبيعيا :

ـــ ألم تقل إنك تحبها ؟ !

فقلت :

ـــ نعم .. إننى أحبها .

وهفوت إليها برفق وقبلتها فى شفتها المرتعشة .

* * *

سافرت آخر النهار لمقابلة خالى فى البندر حيث قضيت ليلتى هناك ورحلت فى الصباح إلى منطقة العمل ، وخيل إلى وأنا فى الطريق أن أسأل عنها أول من يلقانى ، لأعلم هل جاءت اليوم أيضا ؟ لكننى لم أحتج إلى هذا السؤال فقد رأيت شبحا يغدو ويروح على مقربة من مكانى عرفت فيه شبح الأم . قلت لها ببساطة وإشفاق حين رأيتها :

لماذا لم ترتاحى وقتا آخر ؟ ! .. أنت فى حاجة إلى الراحة ..

فقالت بحنان :

ـــ معلهش .. أصلك وحشتنى ؟



وهفوت إليها برفق وقبلتها فى شفتها المرتعشة

وتوقف الحديث عند هذا الحد كما توقف حضور الفتاة . ولم أعد أشم رائحة التمرحنة إلا إذا مررت أمام السور . وأخذنا نقترب فى عملنا من القرية قليلا قليلا وهذا يؤذن بقرب الانتهاء ..وتزايد غناء الفلاحين يوما بعد يوم فقد هيج وجدانهم قرب العودة وأخذوا يرددون الغناء جماعات وأفرادا .. وغطى على غنائهم صوت شاب كان على مقربة منى وكان يتغنى بالمحبوبة البيضاء ويرفع أمر هواه فيها إلى « قاضى الغرام » ، فتمايلت الفتيات بأحمالهن وكتمن بسماتهن ورفرفت على الأرض روائح أيقظت قلوبنا جميعا .. تشبه روائح الأيام القريبة من العيد .

وهممت أن أقول للأم شيئا .. هممت أن أسألها عن الفتاة ولكننى استكبرت أو استحييت .. وضحكت حين فطنت إلى أن القلوب أعضاء تؤدى وظيفتها بشىء من الفوضى كما تؤديها بعض الحواس . فكما نسمع أصواتا نود ألا تلتقطها آذاننا ، ونرى مناظر نود ألا تلتقطها أعيننا ، فإننا نحب أناسا نود ألا نحبهم !

وفى اليوم التالى قلت للأم :

ـــ لا تتعرضى للشمس كثيرا حتى لا تعاودك الملاريا !

ـــ هل سأموت قبل أن ينتهى أجلى ؟ !

فأحسست أن شيئا فى باطنى يسخر منى لأننى فشلت فى حيلتى ولم أكن مخلص النصيحة . كنت أريد أن أرى الفتاة لأعرف هل أحبتنى على صورة ما ؟

* * *

وحانت الليالى الأخيرة لإقامتى هناك ..

وكانت الخيمة قريبة من الحديقة فكنت أشم روائح التمرحنة كلما نشط

النسيم بعد هبوط الظلام . وحملنى دفء الموسم على أن أبيت فى الخيمة ليالى كثيرة . وكلما امتلأ أنفى بالعبير تلفت فى الظلام أو تحت نور القمر كأنما (الفتاة) فى طريقها إلى تحمل معها تلك الرائحة لأنها لم تطق الصبر ..

لكن أحلامى خابت و لم تزد على أنها أوهام .. ففطنت مرة أخرى إلى أن الحياء هو الزمام الطبيعى الذى يضبط رغباتنا وأنه البذرة الأولى فى حقول الفضائل .

ثم قلت فى نفسى ونحن نجمع حاجاتنا ونحزم أمتعتنا فى الصباح :

— « لماذا نقدر على أن نصنع لنفسنا ما نكره ونعجز عن العكس ، وحتى الكره حين يمسى ضرورة للقلب كحقنة الكافور فإننانعجز عن تقديمه لنفسنا .. لماذا؟ ! » .

ووقف القطار وقفة طويلة فى المحطة القريبة من منطقة العمل .. الصغيرة المحرومة من الرصيف الضالة بين الحقول المريضة .. وتزاحم الفلاحون يركبون بأمتعة متميزة معظمها فئوس وشوالات .. وكنت قد ركبت القطار من محطة سابقة حيث انتهت هناك بعض شئونى .

وانتقلت الأصوات الصاخبة إلى داخل القطار بعد أن ركب أصحابها .. و لم يبق على المحطة إلا جمع قليل .. متبعثر .. متفرق .. كان أفراده فى وداع بعض المسافرين العاديين .

وقفت فى النافذة لألقى نظرة على الأرض البعيدة فرأيت آثار الحفر بادية بل خط الأفق وتذكرت أننى تركت شيئين اثنين حيث كنا نعمل ولا أمل فى رجوعهما أبدا .

بعض ملابسى عند الأم لعلها نسيت أن تحضرها .. وبعض علاقات لى مع الفتاة نسيتها أو أغضبتها .

وكنت أسائل نفسى وبصرى يرف على الأرض المختلفة الألوان : هل سأراهم ثانيا ؟ ! وحضرتنى صورة البحار الذى ترك قلبه على الميناء .. وأقلع !

لكننى رأيتها فجأة تحت نافذتى .. إنها الفتاة .. كانت تجرى كالقطة البيضاء لتدركنى قبل أن أسافر ، وخطفت منها والقطار يتحرك ورقة ملفوفة ..

وكانت فيها ملابسى مغسولة .. وأزهار من التمرحنة .. وعلى البعد بين الوجوه والأيدى أضاءت ابتسامات ذاهلة مخلصة .

أجنحة الحب

عندما يختصر أحد الرفيقين رحلته ويترك الثانى ، تبدو المسافة أكثر طولا والأشياء أكثر كآبة . خصوصا إذا كان الرفيقان على وئام ، والنهاية التى يسعيان إليها تشغل بال كل منهما على حد سواء .

حدث أن تخلفت عنى زوجتى بلا استئذان .. ماتت و لم يكن يبدو عليها أنها ستفعل ذلك ، كل الدلائل كانت توحى بأنها ستعيش . كانت تباهى بكل ما فيها حتى بالقدرة على عدم النوم . لكننى تبينت بعد أن انقضى كل شىء أنه لا علاقة بين البقاء والصحة فإنها لم تشك إلا فى ليلة قضيناها مقسمة بين العناية بها والضحك عليها واستعادةالذكريات الحلوة .

ثم وجدنا أنفسنا آخر الأمر مضطرين إلى استدعاء طبيب .. و لم يستطع حضوره أن يغير شيئا من النهاية ، فتخلفت زوجتى وتركتنى فى عرض الطريق .

ألم يحدث لك مرة أن فقدت حافظة نقودك ؟ إنك تقف فجأة حيث أنت كأنما تعين موقعك من المدينة وتعين الاتجاه الذى ستمشى إليه .

هذا هو نفس ما يحدث لنا عندما نفقد أحبابنا . فقد وقفت على الطريق وطالت وقفتى إلى حد الجمود .. إلى حد أننى كدت أنا والبيت والأولاد والخادمة والأثاث أن نتحول كلنا إلى لوحة مرسومة أو قطع فى متحف الشمع .. وأخيرا ، وبعد بضعة شهور ، قررت أن أتحرك .

وشبعت بكاء فى غرفتى الخاصة قبل أن أقاطع أحزانى ..وأحرقت علبة سجاير ، وشربت عشرين فنجالا من القهوة ، ولما دخلت على الخادمة

بالفنجان الأخير نادتنى وكأنها تذكرنى بما نسيت : إنهما حضرا يا سيدى .. حضرا منذ وقت طويل .. فقلت لها : ناديهما ليدخلا على الآن .

ودخلا على هما الاثنان على التوالى .. ابنى وبنتى ، من أجلهما قررت أن أعيش ، دخلا على بترتيب مجيئهما إلى الدنيا .. « شكرى » أولا وبعده « سعاد » ولم أكن أخشى شيئا قدر وقوع بصرى عليها لأنها كانت تشبه أمها .. وخيل إلى أنها أصبحت بعد موتها تتكلم بنفس طريقتها . والحزن قد أخذ منها أكثر مما أخذ من أخيها « شكرى » . ولعل هذا المظهر قد جعلها أكثر قربا إلى نفسى فى هذه الأيام . فلقد كانت متألمة وتريد أن توارى ألمها حين ترانى ، أما ابنى فقد كان على العكس يحاول بجهد غير مثمر أن يلبس قناعا من الأسف كلما وقعت عينى عليه .

وعلى أى حال فقد جلسا بجانبى على الفراش وكنت لا أزال مستقيما . وتفرست فى الوجهين العزيزين الذين يخصاننى من سائر الناس وقلت لهما فى حزم من يصدر قرارا يخاف أن يكون هو أول من يؤاخذ على عدم تنفيذه :

— أستطيع أن أؤكد لكما اليوم يا ولدى أننى سأبدأ صفحة جديدة .

فولدت على فم شكرى ابتسامة علقت به إلى مدى طويل . أما سعاد فقد بدا فى عينيها الشك . إنها مصابة بنفس مرضى ، وهى لذلك تستطيع أن تعرف نقطة الضعف فى . ففيها رقة قلبى ورهافة إحساسى وسرعة تعلقى بالناس والبكاء على القطة إن فارقتها ، لذلك كنت أبتهل إلى الله — فى كل فرصة يشعر فيها الأب أن دعاءه مجاب — أن يجنبها كل كبوة وأن يقيها الهزات . أما شكرى فقد كان « جسمانيا » جسدا خالصا فى كل إحساسه .. ولا داعى لأن أستطرد الآن . فلما بدا الشك فى عينى فتاتى التى لم تتجاوز الخامسة عشرة أكدت لها ، وأنا أمص سيجارتى مصا ، أننى حقيقة

سأبدأ صفحة جديدة منذ اليوم . قلت :

ـــ لن ترياني متجهم الوجه بعد هذا المساء . وثقا أنني أقول شيئا قد تأكدت من سهولة حدوثه .

قالت سعاد وعلى وجهها أمارات الدعاء بالنصر :

ـــ توصلت إلى طريقة ناجحة في النسيان يا أبي ؟

ـــ نعم .

وضحكت أنا ورفعت صوتي بالضحك آملا أن أسمع رنته كي أصدق أنني أضحك :

ـــ نعم يا فتاتي . ونعم يا بني .. لنجتهد دائما حتى ننسى أن نذكر سيئات الذين نريد أن ننساهم . (ثم استطردت كأنني أمزح) وقد كانت أمكم كثيرة السيئات .

وحاولت أن أتذكر سيئة مفيدة فلم أجد لها سيئة كبيرة ، وكادت التجربة تؤتي عكس ما يطلب منها ، فأحسست فوران الدموع ، لكنني تماسكت واستطردت أقول لهما :

ـــ حين يموت الأب تجد الأم نفسها مضطرة إلى أن تكون أما وأبا ، وحين تموت الأم يقع نفس الشيء . (وهززت رأسي) نعم يقع نفس الشيء . ونظرت إلى سعاد فوجدتها في نصف وزنها ، أوردتها الزرقاء تبين في الخد والعنق ، وطوق فستانها الأسود يصنع مع شعرها إطارا حسنا لأنوثتها الجديدة . ومططت شفتي وأنا أنظر إلى الاثنين كأنما لم تقع عيناي عليهما من قبل . ثم قلت :

ـــ أما أنت يا بني فابن سبعة عشر عاما ، وأعتقد أنك عما قريب ستستغني بجناحيك فلا معونة ولا إرشاد .. لكن المشكلة اليوم بالنسبة لي ولكما أنتما

الاثنان هى : هل من الممكن أن أكون لكما أبا وأما ؟ .. من ناحيتى أنا أعتقد أن الأمر فى حدود الإمكان لأنه لا يبدو مستحيلا . وأما من ناحيتكما ، فذلك موضوع آخر ! !

ونظرنا نحن الثلاثة بعضنا إلى بعض وابتسمنا ، وبعد أن توارت الابتسامات أدركنا نحن الثلاثة أيضا أن التجربة فى ذاتها كبيرة ، بصرف النظر عن حبنا لبعض وعن أن الصراحة ممكنة ومفيدة ، وكان رأس شكرى مشغولا بسؤال دار هو نفسه وبكل تفاصيله فى رأس أخته سعاد :

ـــ هل من الممكن حقا أن يأخذ الولد والبنت رأى أبيهما فى مشكلة حب تعترض طريق قلبيهما ، وبكل صراحة ؟ !

الذى جرت عليه عادات الناس من قديم الزمان هو أن يلجأ الاثنان إلى الأم لأنها ـــ من قديم الزمان أيضا ـــ ذات الحنان الذى يقدم للأبناء حتى الطعام الممنوع بأمر الطبيب . وكثيرا ما تشير الأم برأيها الشخصى أو تنقل رأى الأب على أنه رأيها والأب من وراء الستار ، أو يقوم بدور الملقن فتبقى المهابة وتنجح المسرحية .

كل هذا جرى فى خواطرنا سريعا ، ولم نصدر إزاءه حكما ، بل تركنا للزمن ـــ الذى رجونا أن يمنحنا السلوان ـــ أن يصدر أحكامه دفعة واحدة .

ثم سلك الحديث بنا مسالك أخرى ، فتكلمنا عن الجامعة والمدارس ، وعن تخزين البيت ، وعن ملابس الموسم القادم ، وعن حاجاتنا إلى خادمة صغيرة زيادة على الكبرى ، وعن مسئولية سعاد منذ اليوم عن ملابس أبيها ، وأخيرا طبعت على جبين كل منهما قبلة مزدوجة وانصرفا . وانصرفت إلى التفكير فى شئونى بعد أن تركانى فى الغرفة .

* * *

وظهرت شجاعا أكثر من المنتظر ، صابرا أكثر من المألوف . بعد حديث هذه الليلة ، وتنحت الخادمة العجوز عن تدبير شئونى الخاصة وقامت بها سعاد. وقد برعت فيها بعد قليل، وكانت تكوى لى قميصى وتربط لى عنقى ، وأحيانا كانت تصر لاهية ضاحكة على أن تسرح لى شعرى أو تلمع لى حذائى .. وكانت أعمالها الحنون تعمل فى قلبى شيئا غامضا ، أشبه ما يكون بعملية إخلاء السكن . كأنها تنظف قلبى من ذكريات أمها لتحل محلها شيئا جديدا فأحس كل صباح حين تدخل على حجرة نومى لتؤدى هذه الواجبات أن ابنتى بارعة فى خدمة « الرجل » وأنها ستمنح نفسها بكل جزئياتها لمن تتزوجه !!

وعلى مائدة العشاء كل ليلة يطول الجلوس ويطيب الحديث وأنا فى الوسط دائما أشغل عرض المنضدة وشكرى إلى يمينى وسعاد نحو اليسار . أحدثهما بمتاعبى اليومية وآمالى المؤقتة وأمنياتى الدائمة ويفعلان هما نفس الشىء بنسب متفاوتة .. فتتحدث الفتاة بوجهها الطلق وعينيها اللتين لا تخفيان شيئا وتضحك عن أسنانها اللامعة البياض . أما الشاب فقد كان صندوقا مغلقا تقريبا . قبلته أخيرا على ما فيه لأنه من المستحيل أن نغير طباع شخص ما من الأساس . وكنت أغفر له ميوله الجسمانية نظير شىء واحد ، هو أنه دائما من الطلبة المتقدمين .

وفى ذات مساء سيطر على حديثنا التعليق على حادثة من الحوادث اليومية التى تحمل فى طياتها مأساة وعبرة وإن قرأها الناس ومطوا شفاههم ثم انصرفوا إلى مطالب حياتهم غير حافلين فى الغالب ..

قصة رجل انتحر لأنه اكتشف أن زوجته خانته ..

كنا نتعشى سمكا ، وكان الأكل لذيذا ، وكان الجو شديد البرودة والهواء

يهمس فى الشبابيك ويلوى ذوائب الأشجار فى الشارع .

ورأيت شكرى يتكلم برزانة ، هادىء الأعصاب ، ثاقب النظرات ، وفى يده عمود فقرى كامل لسمكة أكل لحمها يحملق فيه كأنه يعد أضلاعه ، قال :

ـــ لقد زاد المغفلون فى الجبانات مغفلا جديدا بعد انتحار هذا الجبان ! .

فحملقت سعاد فيه برهة وأهدابها مشرعة كأنها رماح ، ثم انفجرت بالضحك فجأة وبطريقة لم أعهدها فيها ، فلما نظرت إليها نظرة أب حبيب قد خاب رجاؤه فى ابنته الحبيبة قامت عن المائدة وذهبت إلى الحمام لتغسل وجهها بالماء البارد عسى أن يرد لأعصابها هدوءها . وكان وجه شكرى فى هذه الأثناء منتفخا فى كل ناحية . عروق رقبته ، وخداه ، وأرنبة أنفه ، وعيناه ، وخيل إلى أن أذنيه كذلك قد التهبتا واحمرتا وورمتا ، فأدركت بشعور الوالد أن بينهما سرا ، وأن كشفه لا يروق الشاب ولا يشرفه .. فأخذت آكل فى صمت ، وكلما أرسلت نظرة متفحصة نحو ابنى حاد عنها كأنها سكين .

ثم رجعت سعاد بعد أن غسلت وجهها بالماء البارد .

وجلست على المائدة من جديد وعلى ثغرة نحرها العميقة الواضحة فى نهاية الترقوتين آثار تدل على قرب هبوب العاصفة ، عاصفة الضحك مرة أخرى .

وحاولت أن أخلع على الحديث لونا من الجدية العميقة فأجعل ذهنيهما يشتغلان ، وبذلك تزول ثورة الضجك من أحساس الفتاة . فقلت :

ـــ حكمة من الله ! .. كثيرا ما نتطلع إلى معرفة الغيب ، ونجهد أنفسنا لكشف الغطاء عنه .. فى حين أنه قد يكون من دواعى السعادة أن يظل الإنسان جاهلا بالغيب مثل ..

وأردت أن أكمل قائلا : « هذا الزوج .. » .

فإذا بنظر سعاد ينقض فجأة على وجه أخيها ، وإذا بها تغرق من جديد فى ضحكها العنيف .

وزاد ارتباك شكرى . ولم أحاول أن أنظر إلى وجه أحد منهما ، وقامت الفتاة فغابت عنا وأيقنت أنه من المستحسن ألا نجتمع نحن الثلاثة الآن ، فمما لا شك فيه أنها قد وقفت منه على عيب .. فدخلت إلى غرفتى ، وانصرف كل منهما إلى مذاكرته .

وفى الصباح عادت الصحف من جديد تعلق على حادثة المنتحر .. وتسفه أن يكتب الإنسان « مذكرات » .. إن المذكرات الصريحة كثيرا ما تجر المشاكل حتى بعد موت أصحابها . فقد اكتشف المسكين أنه عاش مغفلا معها خمسة عشر عاما .. ونحن نحزن إذا غلبنا فى صفقة بمقدار خمسة عشر قرشا ، فما باله بعد أن أكتشف أنه قد سخر الناس منه خمسة عشر عاما . ليس هذا فقط . بل المسألة قد استحالت إلى مسألة ميراث .. ما معنى هذا ؟ ! نعم مسألة ميراث . فهل هؤلاء الذين سيأخذون ثمرة كده طول الحياة بعد موته . هم أولاده ؟ !

قلت فى نفسى : « أعوذ بالله » معذور .. إننا نغطى عيوننا عن المنظر القبيح أو نرحل عنه . وقد وجد هذا الرجل نفسه مضطرا إلى الرحيل لأنه لم يستطع أن يضع على عينيه غطاء ! .

وفى المساء ، ونحن على العشاء ، نظرت سعاد إلى أخيها بعين مكسورة ، فعرفت أنها لا تطيق أن تحتمل ما فى نفسها . وأحيانا يرى الطبيب أن العلاج الوحيد للخراج هو شقه بالمشرط .. وقد رأيت هذا بالضبط فيما يتعلق بالموقف بين الأخوين ، فأظهرت طرف المشرط حين وجهت الكلام لسعاد محاولا أن أشجعها على الحديث ، قلت برقة بالغة :

ـــ ماذا هناك يا حبيبتى ؟

فأجابت بعد تلكؤ وفى صوتها رنة لئيمة :

ـــ أبدا .. لا شىء يا بابا .. شكرى يريد .. أن ... أن يكتب مذكراته ! ..

وعادت عاصفة الضحك كما كانت أمس ، لكنها لم تقم عن المائدة ، واستولى الغضب على وجه الشاب ، وبدا كل عضو فيه كأنه وارم خصوصا أرنبة أنفه . فقد انتفخ منخراه بحيث يستطيع البصر أن يرى خياشيمه .. وأدركت أنه يجب استعمال المشرط لينتهى الأمر ، فسألت بحزم :

ـــ ماذا هناك يا أولادى ؟ .. إننى لا أكاد أفهم شيئا ؟ هل من اللائق أن تستعمل الرموز والإشارات بين الأبناء فى محضر آبائهم ؟ ! .

واحمر وجه سعاد ، وسكتت ، وكأن مرحها قد انطفأ فجأة ، وظهر بشكل مباغت هيجان شكرى . وقال :

ـــ لا شىء يا بابا . لا شىء مطلقا . كل ما فى الموضوع أن سعاد ظنت بى ظنا خسيسا حين صعدت إلى السطح فرأت إحدى الخادمات واقفة على مقربة منى .

وخيل إليه أن ازدياد الهيجان خير وسيلة للدفاع ، وخير ضمان لصدور الحكم بالبراءة ، فأخذ يقول :

ـــ هل يليق هذا من فتاة صغيرة بالنسبة لأخيها الكبير يا أبى ، إننى ..

فقاطعته ووضعت للأمر حدا إذ قلت برفق :

ـــ ولماذا تبدو عصبيا هكذا يا شكرى ؟ ! لم يسبق لى أن رأيتك غاضبا .

ثم هناك شىء آخر . إن الأب الذى لا يملك فكرة واضحة عن طباع أولاده يعتبر جاهلا بكل ما يخصه فى الحياة ، ربما كان يعرف ما يخص غيره ،

لكن المهم هو أن يعرف ما يخصه شخصيا ! .

وسكت .. و لم يتكلم واحد منهما .. وظللنا فى صمت هدأت فيه نفسه شيئا ما . فعدت أقول من جديد :

ــ ثم ما حكمنا على هذه المرأة التى كشفت مذكراتها عن خستها ؟ حكمى عليها أنها شجاعة .. شجاعة أيضا بجانب أنها خسيسة .. يجب أن نزن الحسنات والسيئات ونقول ما لنا وما علينا .

وانقضت الليلة . وظل الإعراض بين الأخ والأخت مسيطرا على العلاقة بينهما أكثر من أسبوع .. وكنت ألحظ ذلك بشكل واضح ، وأعلم علم اليقين أن ابنى ذو علاقات بنساء لا يصلحن للحب .. ربما يصلحن لأن يلقاهن الشاب بين فترة وأخرى ، ثم ينساهن بعد أن يخرج من العتبة .

لكننى على الرغم من ذلك ، حاولت أن أجرب فتح هذا الصندوق .. حاولت أن أعرف هل من الممكن أن تسود الصراحة بين الأب وأبنائه ؟ ! فانتهزت فرصة إنفردنا فيها نحن الاثنين وجعلت أحدثه عن مستقبله .

كان يدرس الفلسفة . وكان غريبا أن يبدو جسمانيا هكذا على الرغم من أنه يدرس الفلسفة . وكان غريبا أنه من المتقدمين .. وفى بعض الأيام كان يبدو شديد الصفرة والذبول إلى درجه توجع القلب . فانتهزت هذه الفرصة وجعلت أتحدث معه . عن ماذا ؟ ! عن ذكرياتى وأنا طالب صغير وحيد فى المدينة .. أرغب ثم أندفع ولا آكل ما ينبغى أكله .. بل أجعل لبنود الملذات فى مصروفى المحل الأول .. وبعد أن خضت تجربة معينة فى موقف حرج تعلمت كثيرا . هكذا قلت له . وتغيرت نظرتى للموضوع خصوصا بعد ما أحببت .

وضحك شكرى وهو ينظر إلى الأرض ، كنا ونحن صغار نتخيل عظماء الرجال فى مكانة أرفع من أن نجعلهم يعملون أعمالا يستوى فيها العظماء والسوقة . بل الإنسان والحيوان . وقد كان ابنى ــ ككل الناس ــ

لا يتصور أباه غارقا فى ورطة حب . فضحك وهو ينظر إلى الأرض . عندئذ رفعت صوتى كأنما ليصل إلى أذنيه فيسمع :

إننا قلوب قبل أن نكون شيئا آخر يا ولدى .. والذين يحسون الحب عن طريق قلوبهم أكثر سعادة من سواهم .

وسكت لحظة وتنحنحت قبل أن ألقي القنبلة اليدوية .

واستطردت من بين شفتى المبتسمـتين:

* * *

ـــ هناك طريقة للحب لا تعدو أن تكون مثل أكل الثعالب للأرانب . تحس بواسطة الفم والأسنان فقط ، وهناك طريقة أخرى تعلمها الإنسان من النحلة .. ثم طورها وحورها وزاد عليها .. تعلمها حين رأى النحلة تحوم حول الأزهار فى البرية .. تغنى لها بالطنين .. وتخفق حولها بالجناحين . وتعلو وتهبط .. وأخيرا تأخذ رشفة من رحيقها .. ثم تنكب عليها !

وسكت ، وضحكت . ولم يتكلم شكرى فعدت أقول فى لطف :

ـــ الأرنب وصل إلى جوف الثعلب ، والرحيق وصل إلى جوف النحلة لكن .. قد اختلفت الطريقة ، تماما ؟! .

ولم أسمع إلا دقات الساعة فى البهو تعلن الوقت وكأنها مستعجلة ، ثم جلبة حلوة رعناء تسبق سعاد ـــ عادة ـــ قبل دخولها على أبيها .

فقال شكرى بطريقة سريعة شأن من انتهز فرصة وأعلم الآخر :

ـــ يخيل إلى أنك صدقت الاتهام القبيح الذى سمعته من سعاد !

وقام من مكانه صندوقا مغلقا كما دخل صندوقا مغلقا من ساعة .

وكان من الممكن لو أن زوجتى موجودة أن تعرف حقيقة ما يفعله

ولدها ، إن مفاتيح الأسرار تعلق فى ضفائر النساء فى الريف ، وتودع فى حقائب السيدات فى المدن ، ففضول المرأة وصبرها على الاستقصاء يجعلان منها جاسوسة صالحة .

قلت فى نفسى :« لن أصل إلى ما كنت أصبو إليه . لحكمة عظيمة خلقنا من ذكر وأنثى . من رجل وامرأة .. من أب وأم .. لكل واحد منهما ظل من نوع مخصوص يفيد فى مرحلة من مراحل العمر ولا شك » .

وعندما خطر لى خاطر التجسس ذكرت الحادثة المضحكة التى وقعت عندنا فى الديوان ، حين أفاق الموظفون على عراك فى البهو فيه صراخ امرأة وصياح رجل وضرب وعض . فلما سألنا عن الخبر تبين أن زوجة أحد السعاه اكتشفت بعد شهر واحد أن زوجها تزوج عليها . فآلت على نفسها أن تفضحه هناك فى مقر عمله ، لأنه عجز عن حمل المعزى فذهب واشترى الثانية .

ثم عدت أهمس : نعم نعم .. مفاتيح الأسرار فى ضفائرهن فى الريف وحقائبهن فى المدينة .. هن أقدر منا على هذه العملية .. لكن ماذا عساى أن أصنع له ؟ !

لم يكن قلقى عليه كبيرا إلى درجة مخيفة ، ونحن نغفر العيوب للناجحين للأذكياء والأغنياء ، غير أنى أريد لقلبه حياة راقية ، ثم تذكرت أنه ليس من الضرورى أن يكون الناس كلهم شعراء ولا واضعى ألحان .

فصممت على أن أحافظ على بنائه ، على كيانه الصحى أولا وأخيرا . فذلك غاية ما يدخل فى إمكانى .

الأيام أشد عدو لعاداتنا ، كما أنها أعز صديق لها ، فقد تعودت ألا أرى وجه زوجتى إلى مدى عامين من وفاتها وتعودت من جديد أن أرى سعاد وهى

تحسر الغطاء عن كتفى فى الصباح وتناغينى بوجهها العذب :
— انهض يا أبى العظيم ! .

هكذا كانت تدعونى .. وكانت المسألة دعابة أول الأمر ثم انساقت فيها .. وكل فتاة بأبيها معجبة .. ولو كانت ولدا لحاكتنى فى كل ما أفعله .. كانت تتغزل فيما أصنعه حتى طريقة نفضى لرماد السيجارة . وتقول فى خفة البنات اللينات : « لو كنت رجلا يا بابا ما اخترت إلا أن أكون هكذا » . وتنسق لى المنديل فى جيب سترتى ، وتقبل مفرق شعرى كأنها حبيبة ، وتحب أصدقائى حبا جما ، وتكره أعدائى ، حتى الذين لا تراهم .

ومرة من المرات عملت سعاد عملا اقشعر له بدنى وقف شعر رأسى ، كان زميلى فى الديوان منافسا خطيرا لى .. مسموم السلاح لا يتورع عن ارتكاب أى شىء فى سبيل أغراضه .. صورة مشوهة كريهة لعصرنا المادى الجاف الذى أصبحت الغايات فيه تبرر كل الوسائل .. وكان رئيسنا رجلا مولعا بالرقص .. أقصد أنه يحب الذين يكثرون الوشوشة والتحذلق والتملق .. وكان هذا الزميل مزاحما لى باستمرار على باب هذا الرئيس ، وكثيرا ما نال مآرب عجزت أنا عن نيلها لأننى لا أحسن استعمال الوسائل التى يتقنها ، وكنت أعلق على هذه الموضوعات بحسرة بين أبنائى وأفلسف الموقف .. غير مظهر ندما .. فأنا قد احتفظت بشىء عزيز وهو « شخصيتى » فلم أشتر بها شيئا .. أما هو فقد اعتبر نفسه كاسبا .. بل مشتريا لما ناله بثمن بخس ، لأن الشخصية والعرض والكرامة مسائل تقديرية عند الناس .. فهناك من يقبلون الأقدام ، وهناك ناس يصافحون وهاماتهم مرفوعة إلى أعلى .. الدنيا سوق .. وكل شىء فيها بثمن !! .

وعجبت حين رأيت سعاد تقول لى ذات مساء :

ـــ اسمع يا بابا .. أنا لم أر هذا الرجل الذى وصفت لى طباعه لكنني أستطيع أن أصفه لك .

قلت :

ـــ ممكن .. إن الحب والكره قادران على تجسيد الأحباب والأعداء ، ممكن يا سعاد ، لكن إذا نجحت فمعنى ذلك أنك رائعة الخيال .. والعواطف عندك فوق المستوى العادى .. هلمى إذن .

فرفعت وجهها إلى السقف ، وبدت عيونها كأنها تحت مغناطيس والعروق الزرقاء اللازوردية ممدودة فى جيدها وعلى خدها ، والحلية الذهبية الصغيرة ساكنة على الصدر ، وجعلت تقول :

ـــ أسمر يميل إلى الصفرة .. عريض الذقن .. كثير الهمس .. لا يتبسم إلا إذا وقع فى حرج .. أسنانه صدئة وفى أنفه عقدة وشعره دائما قصير .. لا ينتبه للساعى الذى يرفع له يده بالسلام ، ويعتبر التفاتة من هو أكبر منه حفلة تكريم خاصة .

واستغرقت فى الضحك ، وأقسمت لها أن كل هذا صحيح .. وبعد أن ذهبت النشوة خفت على فتاتى ، خفت عليها من قلبها ! ! .

ثم غيرت الأيام عاداتى فى شيء آخر .

إننى ـــ وكنت فى الخمسين ـــ لم أشعر بانصرافى عن الحياة .

عن ماذا فيها ؟ ! . عن الحنين إلى الأنس ، ولا أريد أن أقول الحب .. وأعدى أعداء الحب هو المشاغل ، المشاغل المادية الدنيوية التى تستغرق الوقت وتهلك الأنسجة وتترك المرء آخر اليوم يأوى إلى الفراش وكأنه قتيل ..والحصان لا يدخل مرحا إلى الإصطبل إذا كان عائدا من سفر أو مربوطا فى عربة سحابة يومه الطويل !

ولما بدأت مشاكلى تخف أحسست بالحنين إلى مجهول .. فى القلب فراغ تركه السلوان .. و« شكرى » أوشك أن يتم دراسته و « سعاد » فتاة لطيفة يخيل إلى أن كل الناس يعشقونها مثل عشقى لها .. لا تزال فى المرحلة الثانوية تمشى بطريقة عرجاء لكنها ستصل !

ثم .. من هذا الذى لايتغير ؟ ! كل الناس يتغيرون ، لأن الحقائق « مواقع غير ثابتة » على سطح الأرض التى تدور .

كنت فى مكتب « المساعدات الاجتماعية » المسئول عن العمل فيه. وأمثال هذه الوظائف سلاح ذو حدين ، يستطيع الخيرون فيه أن يغرقوا فى عمل الخير حتى آذانهم ، ويستطيع الشريرون فيه أن يغرقوا فى عمل الشر حتى آذانهم .. فأيدينا نحن موظفى هذا المكتب ترفع الستائر عن بلايا الأسر وأسرار البيوت .. ولما كان من الطبيعى أيضا أن يكون المترددون على أبواب المكتب معظمهم من السيدات .

والفقر والحرب والغربة والوحدة من القوى الطبيعية لا تصمد أمامها الفضائل .. فكم رأيت كثيرا من الأمهات يبذلن بعيونهن وعودا جبارة للرجال فى سبيل قضاء مطلب .. ولذلك أصبت بحساسية شديدة نحو أبنائى منذ شغلت هذه الوظيفة .. مثل الحساسية التى تصيب العيون فى فصل الربيع .. كنت أتخيل كل امرأة زوجتى وكل ولد أو فتاة هم أولادى أنا .. وأنكب على العمل بطريقة تثير الشك أو الرثاء ، حتى قال لى أحدهم يوما : إنك أشبه بالطبيب الذى يريد أن يشفى علل نزلاء قصر العينى القديم والجديد بضربة واحدة .. مستحيل يا سيدنا .. ارحم نفسك .

وشيئا فشيئا تبدلت عاطفتى ، ولو أن أصحاب الحاجات لا يرحمون .. فإن عجزت كارثتهم الحقيقية عن تحقيق ما يطلبون ، صنعوا لها حواشى

محزنة ، وطرزوها بالدموع ، وأقاموا الدليل على صحتها ، حتى تسلين قلوب المسئولين ، فيصرفوا المساعدة المطلوبة .

كان فى قلبى فراغ تركه السلوان ، وحنين إلى المجهول بعد أن خفت المشاكل .. ونحن نتطلع إلى الدنيا بعين الذين يودون ألا يفارقوها ، خصوصا إذا كنا معها فى « حالة صلح » نرضع أحد ثدييها بأفواهنا ونتحسس بأكفنا ثديها الثانى ، من فرط الحب والرغبة فى البقاء .. وأحسست فى هذه الأثناء أن قلبى معلق فى هدف ، وأن أى رمية ولو خرقاء لابد أن تصيبه فى الصميم

وكان الوقت صيفا ، ومعظم الموظفين فى الإجازات حين دخل علىّ الساعى يستأذن لسيدة تريد أن تقابلنى .. وبطريقة آلية أذنت لها . ولمحت أذيال ثوبها الأسود وهى داخلة من الباب .. ولما رفعت بصرى لم أجد فى وجهها أى شىء مما تتوقع ، فلا تستطيع أن تتصور أنها محتاجة ، ولا أن تتصور أنها فى أزمة مالية ، بل تحكم عليها فورا أنها امرأة نصف متوسطة الحال والجمال .. كانت فى طريقها إلى الميناء أو المحطة لتودع حبيبها العزيز فتحرك القطار ، أو أقلعت الباخرة قبل وصولها هى بقليل ، فأخذت طريقها عائدة إلى البيت والوله والشرود ينهشان جمالها نهشا .

وحين بدأت تشرح مأساتها كان الاختصار والصدق والتعبير تملأ حركاتها . ولن أنسى دمعة كانت تطل وترجع وكأنها من سحابة شحيحة .. أو تقلب كفها وهى تشرح كأنها تعاتب الزمن فى شخصى .. وكدت أمد يدى فأربت على خدها وأعتذر إليها عما جرى .. وكدت مرة أخرى أحس بالخجل كأننى شريك للقدر فى مأساتها والحكم عليها بالدق على كل باب .

وقدمت لها زجاجة « كازوزة » مثلجة وأنا أهدئ من روعها ، وجلست ترتشفها وكأنها لم تشرب ماء قط فى مكان خارج بيتها ، ولم تحاول أن تثبت



فكم رأيت كثيرا من الأمهات يبذلن بعيونهن وعودا جبارة للرجال فى سبيل قضاء مطلب،

(أشياء للذكرى)

نظرتها فى بعد أن فرغت من القصة ، بل جعلت تنظر نحو كفيها الصغيرتين فأجبرتنى على أن أطيل إليهما النظر،حتى تنبهت لطول ما نظرت إلى أن فى معصمها « غويشة » وحيدة من الذهب حكت الحكاية بالنيابة عن صاحبتها مرة أخرى .. من ترددها على الصاغة لتبيع قطعة وراء قطعة لتشترى ما يحتاج إليه الأحياء .

ووعدتها خيرا وأنا صادق ، وانصرفت فى حذائها الواطى فلم أسمع وقعه على الأرض ، لكن قلبى خفق عقب ابتعادها ثم ظل يخفق ، فقلت فى نفسى :

ـــ لعلها مأساة ! ! .

وبعد العشاء قدمت لنا سعاد عنبا مثلجا ، ثم نوعا من « الجلاس » صنعته بيديها وكانت فرحة فخورا بأنها نجحت فيه .

وذكرنى اللونان من الحلوى بأناس من المحرومين .. وعلى التحديد ذكرت المرأة التي كانت عندى فى المكتب .. وخيل إلى لو أن الموازين تترك على حريتها فلا تعبث بها يد الوازنين لقالت لى ابنتى ما سبق أن قالته لأخيها .. ولسخرت منى .. ألم يخفق قلبى خفقة حب .. إن هذا مريع : يجب أن تكون الملامة آخر ما نقدمه للآباء .. آه ! ! فقط لو أنهم كانوا صرحاء معنا .. ما لنا كالأطباء لا نستطيع أن نعالج أبناءنا أحيانا ؟ !هل هذا لفرط جبنا فيهم ؟ يدنا تهتز لو حاولنا أن نمسك المشرط .. من العدل أيضا أن تقول لى سعاد : « اكتب مذكراتك يا أبى » وأن تسخر منى كما فعلت بأخيها حين ضبطته متلبسا فى السطوح .. المهابة والثقة للآباء وفيهم ..والصراحة من الأبناء .. هذا هو كل ما يحتاج إليه البيت الجديد .. آه يا ربى ! !

وقبيل المنام شغلت هذه المرأة أوقاتى ، شغلتها بمشكلتها .. أولا : فقد كان زوجها أحد المدمنين وقد فقد رأس ماله ، ثم فقد رشده ، ثم صار مفقودا هو

شخصيا بعد ذلك .. خرج و لم يرجع منذ سنوات . وقضت المحكمة بفقده . وأصبح الأبناء يتامى والزوجة أرملة مع احتمال أنه لا يزال يتنفس الهواء الطلق .

وماكينة الخياطة لم تعد تنفع فقد انصرف الناس عنها إلى ذوات المقص الذهبى .

وهى كما قالت عن نفسها : « كما ترانى يا سيدى .. رجلى على حافة الهاوية إن لم تجذبنى يد من الخلف فإننى سأسقط » . وكانت تنظر وقتئذ إلى المحبرة السوداء .

وشغلتنى ثانيا بما سيحدث إن لم تجذبها يد من الخلف ، ستقابل أول شاب فى الطريق وتقول له : خذنى معك إلى بيتك .. وربما سرقت حافظة نقود ذات ليلة لأن عرقها ربما لا يكفيها .. ثم تدخل السجن . ويحاول الصغار من بعدها أن يسلكن طريق العيش . فيقعن فى الأخطاء التى لا صواب لها .

وتنهدت فى الظلام .. واستغفرت الله .. وقمت ففتحت شباكا ليدخل الهواء فيغلبنى على أفكارى فأنام .

و لم تنجح سعاد فى امتحان آخر هذا العام .. وبكت كثيرا وضحكت منها كثيرا وجلس شكرى ينظر إليها فى شماتة .. وجعلت بعدئذ أفكر فى الفرق بين الشخصين . بين الذين يشغلهم إحساسهم بكل ما حولهم عن أن يتقنوا شيئا واحدا وبين الذين ينحصرون فى شىء واحد فلا يدركون سواه .

وبعد أيام عادت إلى المرأة .

كنت قبلها أسأل نفسى : هل أتمنى أن تعود ؟ وأجابتنى نفسى بصراحة : أى نعم .. لكننى أود ألا أراها ثانية .. كنت خائفا من ضعفها وصدقها وبساطتها .. والقلب مستريح من خفقات الهوى منذ عشرين عاما ،

متخذا من حرير الحب الذى صنعته زوجتى شرنقة رقد فيها .

وكنت خائفا على قلبى أن يتلف حرير الشرنقة ثم يبعث من جديد على شكل فراشة بهية الألوان .

ودخلت فى ثوبها الأسود مسبلة العينين بعد أسبوعين من اللقاء الأول .

جلست أمامى دون أن تنبس بكلمة .. كان ريقها يبدو جافا وهى تبحث عنه .. وبنظرة أدركت أن يدها خالية من «الغويشة» .. الأخيرة . وسألت نفسى وأنا أكاد ألهث :

ـــ حسنا .. وبعد أن باعت الغويشة الأخيرة ماذا تصنع ؟! . إنها لا تملك إلا أن تبيع يدها الخالية لأنه لم يبق لها سواها .

ثم نظرت إليها فرأيت على ملامحها مثل آثار السهر أو القلق أو الحزن ، أكثر من المرة الماضية ، جمل يعيش على شحم السنام فى صحراء الدنيا ، لا حول ولا قوة إلا بالله . ونطقت أخيرا :

ـــ اسمعى يا سيدتى ، إن الوزارة ستمنحك إعانة عاجلة ..

وسكت ، فرأيت كأن وجهها يضىء بشمعة بعد شمعة ..

ـــ لكن ! !

فهزت رأسها تستفهم . فقلت :

ـــ الإعانة أو المساعدات مثل روح النوشادر ننبه بها المغمى عليهم ولا نبعث بها الموتى .

وسكت لأعطيها فرصة تقول شيئا ، لكنها لم تتكلم .. وعادت الشمعات التى كانت أضيئت منذ وهلة إلى الانطفاء شمعة بعد شمعة . فحز ذلك فى قلبى وأدركتها أقــول :

ـــ لذلك ، فإنك مادمت تجيدين الخياطة فمن الممكن أن نلحقك خياطة

بأحد الملاجيء حتى تنتهي أزمة حياتك .

فشكرتني بفرح ونهضت قائمة ، وفوجئت وأنا أسلم عليها بأنها مالت على يدي فقبلتها في تبتل ، فكأنما رمت عليها جمرة ، واختفى إحساسي بكل شيء إلا بأنها إحدى الغريقات .

***

وعلى الرغم من غيابها فإنني لم أستطع نسيانها .. وكثيرا ما استعدت عنوان بيتها من ذاكرتي فوجدتني أحفظه .. وأتطلع إلى شبيهاتها في الشارع ثم أسأل نفسي في الفترات التي يحاكم فيها العقلاء أنفسهم في الخلوة ، على النزوات والهفوات ما وقع منها وما كان على وشك الوقوع — أسأل نفسي عما عسى أن تصنعه سعاد أو شكري ما دمنا نحن — وفي هذه السن — لاننجو من مناوشات العواطف .

والذي جعلني أنساها أكثر وأكثر شيء بدت تباشيره على وجه الفتاة . بنتي العزيزة . كانت تسهر لتذاكر وكنت أنهض خلال الليل فألقي عليها نظرة من فتحة الباب .

لم تكن على مايرام .. صارت على غير ما كانت .. في عينيها أسى غامض وعلى وجهها سهوم شديد .

ومن حقنا أن نتجسس لنعرف ماذا يفكر فيه أولادنا .

ففتحت أدراج مكتبها وهي في الخارج .. إلا واحدا كان مقفلا بالمفتاح فألفت له مفتاحا ثم سطوت عليه ، وكنت أشعر على الرغم من مشروعية عملي بأنني لص . كأنني يومئذ كنت أطل على ابنتي من ثقب الحمام .

ولكن !!

إنها الضرورة... إن سعاد تخطو نحو التاسعة عشرة من عمرها .. يجب أن أحرسها ، خصوصا إذا نامت ، وليست فورة الشباب فى عمر الأبناء إلا فترة من فترات النوم لأنهم يصنعون فيها أشياء لا يتذكرونها إذا ما إستيقظوا .

فى الدرج صور تذكارية لها فى إحدى الرحلات ، وصورة أمها العزيزة عليها بلل قديم كأنه دموع جفت ، و« خمسة وخميسة » من الخرز الملون أهدتها الخادمة العجوز كانت تعلقها على صدرها قديما ولن تستطيع أن تعلقها على نهدها اليوم .. وصورة لإله الحب « كيوبيد » وهو يطلق سهمه الذهبى . كتبت تحتها سعاد بخطها جملة « الله أكبر » ! !

ودفتر جميل مهندم كتبت على غلافه بخط أنيق كلمة « مذكرات »!! فخفق قلبى بعنف .

آه .. إن الذين يصلون بسفينة أولادهم إلى الشط الأخير سالمين ينبغى أن يموتوا سعداء .. حتى ولو ماتوا عضوا عضوا . لأن غرق أحد الأبناء فى بحر الحياة يلقى فى القلب عذابا لا يعرفه إلا الآباء !

هل أفتح الكراسة فأرى ما فيها ؟!

وخيل إلى أن عينيها الساذجتين تقولان لى لا تتجسس على يا بابا..إننى أحب .. فأغمض عينيك إن الذى عندى لا يقال إلا للأمهات ! ! لكن هذا ليس منطقا . وفتحت الكراسة فإذا بها بيضاء ، لا تزال بيضاء بكرا لم تخط فيها يدها حرفا وتمنيت أن أمسك القلم فأملأ لها الصفحات بفيض من حياة سعيدة ، منيرة بالحب والطهر والسعد والنقاء .. ثم أمسك هذه الصفحات وأقدمها إلى القدر فيعتمدها ، فيكتب فى آخر كلمة « موافق » تماما كما يفعل الرؤساء فى الدواوين ، أو الوزراء فى المكاتب فتسعد « سعاد » .. وبكت عيناى ، وأقفلت درجها وخرجت .. وبعد عودتها من المدرسة قبلتها خمسين

مرة كأننى أعتذر سرا عن ذنب عملته سرا .. عن التجسس عليها ! .

ومرضت الخادمة الكبيرة راعية بيتنا ومدبرته ومن تقوم على حاجات الأولاد كما تقوم الأم .. ونقلتها إلى مستشفى بأجرة اسمية فقد حرصت على الرغم من أننى لست غنيا أن أوفر الراحة فى اللحظات الأخيرة لامرأة وفرت لنا الراحة عشرين عاما كاملا .

وترتب على ذلك أن قامت سعاد فى البيت وتخلفت عن المدرسة وأصبحت مسئولة عن كل شىء .. ورأيتها خلال هذه الأيام فى حالة لم تعجبنى ، عصبية حادة سريعة البكاء .. سألتها مرة كأنما لأثير شجونها وحبها وكل مشاعرها القديمة :

ـــ مالك يا سعاد لست مثل زمان ، لا تنسقين المنديل لبابا ، ولا تغازلين بابا ، ولا تربطين له الكرافاتة ؟ ! لماذا يا حبيبتى ؟

وكان عتابا مثيرا فبكت وابتسمت فى وقت واحد :

ـــ أنا يا بابا ؟ ! ! أنا .. أنساك ؟ !

وارتمت فى حضنى وأنا واقف فكأنها طفلة .. ومالت تقبل كتفى فلثمت شعرها من أعلى .. ورأيت فى عينيها دموعا حين رفعت رأسها إلى .

ودخل علينا « شكرى » ذات مساء شاحبا باكيا .. كانت الدموع فى عينيه غريبة المنظر .. بكى الشاب الذى لا تندى عيناه ، لأن الخادمة ماتت فى المستشفى فأحسست ليلتئذ أن جزءا كان متخلفا عن الموت ـــ وكان لا يزال حيا من آثار زوجتى قد أدركته المنية هذا المساء ، فبكيت ، لأن الدنيا من حولى بدأت (تغير المناظر) كما يفعلون على المسرح بين فصل وفصل .. وكان معنى هذا هو طول إقامة سعاد فى البيت والحكم عليها بالتعثر فى الدراسة حتى نعثر على « مدبرة » جديدة .

وفى هذه الأثناء ظهر لنا شبح الحب مرة أخرى وجاء فى وقت مناسب ، فلقد دخلت على المرأة التى وصفتها لك .. طفت على سطح الماء والبحر هائج فتعلق بها بصرى .

كنت خارجا من المكتب قبل العمل الرسمى لطارىء شخصى فإذا بى أجدها أمامى ، وهى تقول :

— كنت ذاهبة إليك ! ! حظى حسن .

ووقفت أحملق فيها . وبلا شعور مددت كفى الاثنتين لأسلم عليها بهما . وبهتت المرأة وسلمتنى يدها ، ولم تحاول أن تسحبها منى .

وأفقت على تدفق الدم فى عروقى وعلى بقايا الشرنقة الحريرية التى أتلفها قلبى وخرج منها على هيئة فراشة ، وسرت فى الاتجاه الذى أقصد إليه وسارت جنبى تحدثنى عما لقيته فى الملجأ . لقد عجزت عن الدفاع عن نفسها .. الحوادث أعظم منها .. وشايات ورغبات وناس يعيش بعضهم على لحم بعض .. ولذلك فقد فرت بنفسها قبل أن يفوت الأوان ! !

وعرجت إلى شارع جانبى عمدا ، كنت أسمع فيه وقع خطواتى ، ولم يكن الطريق مزدحما وإن كان رأسى جد مزحوم . ولما تلاصقنا فى إحدى الفرص لمرور عربة نقل عريضة كانت تفرغ الأثاث فى أحد المنازل ، مددت يدى ، فأمسكت أطراف أصابعها كأنى أريد أن أنجو بها من خطر ، ولم أتركها بعد ذلك ولم تحاول هى استردادها منى . غير أن نظراتنا أكدت أن الذى فى الصدور شىء متبادل وأن أوقات استعدادها للنوم كانت مبللة كنفس أوقاتى .

— إلى أين نحن ذاهبان ؟ !

وجاءنى صوتها الخائف يسأل هذا السؤال حين وصلنا إلى شارع رئيسى ،

صوت ملون بالحيرة ، فيه ما أستطيع أن أصفه بأنه استسلام أو بأنه إغراء فقلت لها وكأنني شاب على عتبة التجربة الأولى لم يزاولها بعد :

— ليس فينا من يعزف طريقه ! !

— كلنا تائهون ؟!

ولم أجد ريقى ، فأومأت برأسي ايجابا .. نعم .. نعم .. كلنا تائهون .

أوصيتها أن تعود إلى المكتب مرة أخرى — قبل أن نفترق — حتى أدبر لها عملا أكثر أمانا وضمانا . ولو بوساطتى الشخصية .

وعدت إلى البيت نصف محموم . مصيبة . أنا وبنتى . وربما ابنى ، نجتاز تجربة واحدة ؟ ! وإذا شغلنى شأنى فلن أشعر بشئون الآخرين ! ؟ لا .. لن أسمح للحياة عندنا أن تستحيل إلى رحلة مدرسية كل شخص فيها يحمل متاع نفسه وهمومها .

وأقفلت على حجرة نومى وظللت أقرأ وأفكر حتى كدت أنفجر .

ووجدنا مدبرة للبيت بعد ذلك .. امرأة متوسطة العمر نصف زنجية قاسية الملامح فطساء الأنف . تستطيع أن تخيف « شكرى » فلا يخلق لها مضايقات . كم هو مستريح . ذلك الإنسان الذى لا يحس خفقان قلبه إلا إزاء الكوارث . الكوارث وحدها . أما الذين تهز قلوبهم هفات النسيم ووسوسة الشجر فإنهم معذبون .

وعادت سعاد إلى المدرسة وتحسن مظهرها كثيرا .. هل كانت تلقى حبيبها فى الخارج ؟ لم أحاول مرة أخرى أن أفتح درجها المغلق . إن الظروف لم تحوجنى بعد . وكلما ألح على قلبى حبى الجديد تذكرت الجمرات التى تمسكها فتاتى بأصابعها . كل شيء فى الدنيا نزاوله بكثرة نكسب فى مزاولته مهارة .. الحب والحرب واللعب بالنار . ومن ينجو من ورطة بعد ورطة

يصفه الناس بالمحنك المجرب .

لأول مرة بعد بضعة أعوام تأخرت كثيرا فى الخارج .. عدت إلى البيت بعد منتصف الليل كدر النفس مثقل الصدر كأننى أكلت حفنة من التراب ، وركبنى هذا الإحساس كأنه الشيطان بعد أن خرجت إلى الطريق العام من المنزل الذى اختليت فيه مع « عزيزة » . هل تعرف عزيزة ؟ ! إنها المرأة التى جاءت إلى فى مكتب المساعدات . قضينا خمس ساعات معا نسيت فيها كل شىء إلا أننى من طين .. وضحكت فى الداخل بكل كيانى وبكيت فى الخارج بكل كيانى . وعلى الرغم من مرارة الندم فإن حلاوة ما قدمته إلى كانت لا تزال عالقة بشفتى . ولأول مرة فى تاريخ وجودى أحسست الحلو والمر فى حلقى جنبا إلى جنب . وفى الطريق أيضا شككت فى أنها امرأة خداعة محترفة لئيمة تلبس فوق قميص « المومسات » طرحة بيضاء ! لكن كل ذلك كان عاجزا عن أن يمحو ذكرى ساعات قطعت من الزمن بمقص روحانى جسدى ، شيطانى ملائكى . جعلنا أحيانا فى شفافية النور وأحيانا فى قتامة الزفت ! !

وكان كل شىء نائما فى البيت حين عدت . إلا الخادمة السوداء قدمت إلى عشاء خفيفا وعيناها نائمتان . وكانت ثقيلة الأرداف أقدامها مثل الجمل فحرمت عليها أن تلبس فى رجلها شيئا حتى لا تهدم السقف على السكان .

وبعد أن دخلت حجرتى لم أستطع أن أنام إلا بعد أن قررت أن أجعل أول ما كان بيننا هو آخر ما يكون لأن ضميرى كان فى عنفوانه ساهرا . يكيل لى الصفعات .

وتبادلت تحية الصباح مع أولادى ورأيت ابتسامة النفاق ووجه الكلب على ملامحى فى مرآة مقابلة وأنا أسرد عليهم تفاصيل زائفة لسهرة الليلة

الماضية ، وقبل أن أخرج إلى عملى فتحت درج سعاد بشوق لم أستطع قهره .

لم أنظر إلى شيء مطلقا إلا إلى دفتر المذكرات ، لم يكن أبيض فى هذه المرة . بدأت الفتاة تكتب فيه بصراحة عن التفاهات . وعن المهم . كانت تغطى الكلام .

١٥ يناير :

ليس فى البيت من آنس إليه . حتى بابا انصرف عنى . بعد موت الخادمة العجوز أصبحت وحيدة . شكرى أخى لا يزيد على أنه ماكينة ، عقل إلكترونى يعمل بالكهربة . وهو يدرس الفلسفة . بلا نيلة .

٢٨ يناير :

أنا أحب بيت صديقتى زينب . أحس فى الشتاء أنه دافىء وفى الصيف أنه شاطىء . ياه !! لماذا ؟! لا أعرف . يا بابا .

أحب الربيع . غير أنى فيه كثيرة الأحزان ، لماذا أبكى وأنا فرحانة . أسأل من ؟ شكرى يدرس الفلسفة ولا يفهم شيئا . سألته فلم يعرف . سأسأل زينب . هل كانت « ماما » تعرف الإجابة عن هذه الأسئلة ؟ وما أضيق الدنيا وما أوسعها ؟!

٢٥ مارس :

لن أذهب إلى بيت زينب مرة أخرى ، هناك أشياء مخيفة ، ولو أن قلبى سيغلبنى .

٣٠ مارس :

تركته يحل لى تمرين الهندسة ، وظلت تعصر الليمون ساعة كاملة !!

ولما دخلت علينا لم يقل لها أحد منا أنك غبت ، أنا وحيدة وأريد أن أبكى .

لن أكتب شيئا بعد الآن !

*** *** ***

وأقفلت الكراسة وأعدت إغلاق المكتب وخرجت أجر همومى .

ولاحظت فى الليالى التالية أن سعاد تكثر من ذكر زينب وأنها تحوط اسمها بتقديس وثقة ، وحاولت جاهدا أن أجعل ذهابها إلى هناك قليلا وبقدر الضرورة لأننى لا أعرف أخاها . ربما كان شابا شريف المسلك تخلل حياة بنتى وأحلامها بشكل لا يقبل التراجع ، ولو كانت أمها موجودة لعرفت دخيلة نفسها لكننى ما دام الموقف مفروضا على سأحاول .

و لم أحاول أن ألقى « عزيزة » . مهدت لها سبيلا جديدا للعيش فى أحد المصانع التى تجهز ملابس الأطفال وبأجر لا بأس به .. وكنت شديد الحنين إليها لأنها استطاعت أن تقنعنى ليلتئذ أننى لا زلت كائنا حيا قادرا محبوبا . وهذا هو الفرق بين امرأة وامرأة عند أى رجل كان، لكنها كانت تعترض طريقى بين حين وحين ، عندئذ أنسى وعودى وأستعد لنوبة من الندم بشىء من عدم المبالاة كما يستعد التلميذ الصغير للعلقة مقدما وهو يثب فوق سور المدرسة باحثا عن اللعب ، لكن هذا الشر كان يذكرنى بسعاد .

ولما نجح « شكرى » فى الليسانس وأصبح فيلسوفا ، تعمدت أن أقيم حفلة شاى صغيرة وتركت سعاد تدعو إليها زينب وأخاها .

كنت أريد أن أراقبه عن كثب وأستشف داخلية نفسه وأرى فى صمت ماذا تقوله عيون كل من الحبيبين .. أهما حبيبان ؟ يحتمل .

وفى جو مشبع بالود جلسنا إلى المائدة . وتركت سعاد كرسيا خاليا كان من الممكن أن تجلس فيه امرأة غائبة لعلها الآن عظيمة الفرحة ، هى أمها !!

ولم تكف الفتاتان عن الضحك ولا الثرثرة . وكان نظر زينب عالقا بشكرى يتفحصه بعمق من يتردد جدا قبل إصدار الحكم . أما سعاد و« ماهر » فقد كان الهواء بينهما مشبعا بكل ود . ورأيت الشاب رزينا مرهف الإحساس أكبر من سنه بكثير ، لم يفتر عن التحدث عن الموسيقى ولا الفن بشكل جعلنى أحترم الرأس الصغير الذى لم يتجاوز بعد عشرين عاما .

أما ابنى فقد كان يأكل بكل جوارحه بفمه على المائدة وبعينيه الفتاة التى تجلس تجاهه .

وتركتهم وحدهم وانصرفت مرتاح النفس ، لأتيح لهم شيئا من الحرية . وظلت فتاتى فى هذه الليلة تمشى فى حذاء عالى الكعب وكأنها بهلوان . كل جارحة من جوارحها تفيض بالسعادة . ماذا يفعل فينا الحب يا إلهى ؟!

ونمت ملء جفونى ، هأنذا قد جعلت الخيط أكثر قوة ومتانة وأصبح « ماهر » ، يعرفنى ويعرف ابنى ، وفتاتى . وذلك خير من المجهول . وبت أحلم بالسطر الذى ستكتبه سعاد فى مذكراتها بعد ذلك ، ماذا سيكون ؟

. وكثرت مشاغلى « الديوانية » وزحمنى التفكير فيما عسى أن يكون العمل الذى سيشغله « شكرى » بعد تخرجه ، وغابت عنى « عزيزة » كأنها نسيتنى ، وكان الحنين الغامض المشوب بالحب والندم يهز أوصالى هزا .

حتى دخلت ذات صباح مكتب فتاتى .. وفتحت الدرج .. وقلبت صفحات مذكراتها فإذا بها قد كتبت فيها :

٢٠ يونية :

بابا .. هل قرأت هذه الصفحات ؟ ما لعينيك يا بابا تبدو فيهما المعروفة أم يا ترى قلوب الآباء تحس بكل شىء ؟ !

على كل حال شعرت الليلة كأن يدا حنونا أحكمت على الغطاء فى ليلة

شتاء وأنا نائمة ، وكان اللحاف منحسرا عن جسمى .

***

اتجهت فى صمت إلى إدارة الكلية حيث قابلت موظفا هناك .. موظفا إداريا . وسألته عن بعض معلومات أجابنى عنها بكل سهولة . وكان يعرف شخصى . وقد قابلنى باحترام .

وفى الطريق إلى ديوانى مرة أخرى كنت أفكر فى أحسن ما يعمل فى أمثال هذه المناسبات ، وآخر النهار نزلت فاشتريت شيئا .

وانقضى يومان ، ثمان وأربعون ساعة ، وإذا بزينب داخلة إلى مسكننا تتحدث مع سعاد بصوت عال مرح فكه جميل عن مفاجأة غريبة وقعت فى بيتهم وتركت أخاها « ماهر » يدق كفا بكف ويقرر من هذا اليوم تغيير خطته . ما الحكاية ؟ !

كان الوقت عصرا حين دق جرس بابنا فوجدنا على الباب ساعيا من إحدى الشركات يحمل بين يديه صندوقا باسم ماهر ، فلما تسلمه وانصرف الساعى فتحه ونحن ملتفون حوله فى حذر ، فإذا الصندوق يحتوى على حزمة من الأسطوانات ، سمفونيات غربية وألحان شرقية . ثروة ضخمة تغذى ماهر خمسين سنة ومعها بطاقة باسم والدك يا سعاد يهنىء فيها « ماهر » بعيد ميلاده وكان لا يذكر هذا التاريخ إلا مصادفة . فلما اكتشف أن رجلا مهذبا اكتشف تاريخ ميلاده العظيم « هاء . هىء . هىء. » نزل سريعا فاشترى الفطائر والورد والزنبق وجلسنا نحتفل به فى مرح على نغمات الموسيقى الحلوة .

وسألتنى سعاد :

ـــ وكيف عرفت تاريخ ميلاده يا أبى ؟

فضحككت لعينيها الضاحكتين وقلت لها :

— وهل هذه مشكلة ؟ من سجلات الكلية !

ومنذ هذه اللفتة التى ذكرت فيها هذا الشاب بشيء يخصه وكان هو غير مهتم به . أصبحت العلاقة بين الأسرتين أشد قوة . وتسللت إلى أذهانهم احتمالات عن علاقات كثيرة . ثم فوجئت بأن شكرى مرشح لبعثة دراسية فى « باريس » حيث يدرس الفلسفة هناك .

على مائدة الشاى اجتمعنا مرة أخرى . كان ماهر يتحدث عن الفن والسحر والحب فى البلاد التى سيرحل إليها شكرى ، وهو ساهم يأكل مفكرا فيما لا يخطر على بالنا ، هو وحده الذى يعرف ! ؟

قلت لولدى :

— ستعود متزوجا من هناك ، لكننى أخاف أن تتزوج أول امرأة تلتقى بها . أرجوك أن تفكر فى هذه الشئون بطريقة أخرى . لقد كسبت الجولة الأولى بنجاحك فاحرص على الثانية بعلاقاتك .

وبتنا وأصبحنا ، ثم ركبنا إلى الإسكندرية لنودعه على الميناء . وهناك فوجئت بوجود ماهر ، وصنع الوداع فى عينى ما لم يصنعه فقد الإنسانة التى بكيت عليها كثيرا . وغاب قلبى عن وطنى برحيل ولدى عنه .

وفى الإسكندرية زارنى ماهر فى اللوكاندة التى نزلت فيها ، وجلسنا نتسامر نحن الثلاثة أنا وهو وسعاد .

وفى إحدى الخلوات سألنى بحياء يحمل كثيرا من الرجولة :

— عمى .. سأكمل دراستى فى العام القادم وأنا أحب سعاد ، فهل تعاوننا يا عمى ؟

فربت على كتفه وقلت له :



وصنع الوداع فى عينى ما لم يصنعه فقد الإنسانة التى بكيت عليها كثيرا

ـــ ليسعدكما الله .

وفى أثناء رجوعى إلى القاهرة أحسست على الرغم من فرحى أننى فقدت اثنين دفعة واحدة . ووصلنا وقت الضحى ، ونمت وقت الظهيرة . ولما استيقظت عصرا ركبت بطريقة لاشعورية إلى مكان لم أدخله منذ سنتين ، كنت مشتاقا إلى إنسان يشاركنى . الدنيا من حولى مرة أخرى « تتغير المناظر » كالحركة التى تسود خشبة المسرح بين فصل وفصل كما يقولون . وهناك فى إحدى الجبانات التمست الطريق إلى قبر زوجتى وكانت الشمس مضيفة للغروب ، وعلى القبر صبارة جافة ، ولم تسل دموعى وإن كان قلبى يدق . قلت :

ـــ كان يجب أن تكونى إلى جوارى منذ الآن . . هل تسمعيننى أيتها الحبيبة ؟ لقد عملت آخر ما يستطيع الرجال عمله، لكن اغفرى لى هفوات ربما غفرها الله ! !

وهنا ، مسحت دمعة انسابت على خدى .

هكذا أبدا

ـــ « إنى مهمومة .. ليته يكلمنى !! » .

تنهدت ثم نظرت عبر النافذة .. والوقت صيف والندى على الحشيش والعصفور فى الحديقة آخذ فى التغنى بأول أنشودة .

أما هى فلا تزال فى فراش النوم تريد أى شيء يحرك قلبها .

وحينما يقع الخلاف بينها وبين هذا الإنسان الذى تحبه بقدر ما تكرهه ، وتكرهه بقدر ما تعطيه ، وتعطيه راغبة فى حرمانه ، وتحرمه راغبة فى إعطائه .. فى هذه الفترات تبيت وتصبح وهى مختلفة مع نفسها . تبرم القرار وتنقضه بنفس الطريقة التى تحبه بها وتمقته ، ثم هى بعد ذلك تكون عرضة لأن تهزها حادثة حب جديدة ، هكذا أبدا ..

ليته يكلمنى لكن الوقت لا يزال مبكرا نوعا .

وبعد لحظة دخل إليها ـــ بانحراف ـــ شعاع جانبى من النافذة القبلية المطلة على الحديقة . كانت هى منذ قليل قد رقدت فى فراشها معكوسة . قدماها على الوسادة ورأسها على الناحية الأخرى وذكريات من ليلة أمس الأول لا تزال فى خاطرها كأنها بقية حلم لم يستطع نور النهار تفريقه . ليلة اختلفا فى المطعم بعد العشاء وبلغ الأمر بهما إلى حد أنها رفعت صوتها فسمعها ناس كانوا يتلكأون على الموائد . صوتها الذى لا يرتفع حتى فى ساعات الغضب ، حتى بين جدران أربعة :

« إنه غاضب هذه المرة .. ليته يكلمنى ! » .

ثم اعتدلت فى رقدتها فعاد رأسها إلى الوسادة .. وابتسمت فى نفسها حين أدركت أنها وضعت رأسها حيث يضع الناس رءوسهم فى العادة ، لكنها سألت نفسها سؤالا :

« وأين أضع قلبى » .

لم تكن واثقة من أنه فى مكانه الحقيقى .. كان قلقا حيث أودعته ، مثل المفصل المخلوع لقد استعانت بكل ثروتها من الحياة والمعرفة لتتبين موقعها من هذا الإنسان . تعطيه وهى أشد النساء رغبة فى حرمانه وتحرمه وهى أشد الناس رغبة فى إعطائه ، لكن ثروتها من الحياة والمعرفة ضاعت وأفلست .. وبقى الموقف كما هو مزيج جيد تمشى الحلاوة والمرارة منه إلى النفس على قدم المساواة تماما .

واستقر الشعاع المنحرف ـــ أخيرا ـــ على جهاز التليفون ، الراقد على منضدة قريبة من الفراش : الأسود الساكت كأنه زنجى أخرس ، ولمع الجهاز تحت الشعاع كما يلمع الأبنوس فى الوقت الذى ظلت فيه عيناها الذابلتان تتفرسان فيه بلا أفكار .

ولم تدر أنها نامت .. لأن التأمل البطىء السطحى يبعث الهدوء .. فالخدر .. فالنوم .. وعرفت أنها نامت حين استيقظت على دقة جرس . فتحت عينيها المتعبتين ونظرت إلى الجهاز الذى كان الشعاع قد تحول عنه فألفته يرن فى شبه عصبية حتى تكاد السماعة تتنزى فوق شنكلها .

ـــ « إنه هو .. إن التليفون يطلبنى بالطريقة التى يطلبنى بها هو بعصبية واستعجال ! .. رن ! » .

ـــ وتركته يرن . وطال الرنين. ويدها تنازعها لتمتد نحو السماعة . وأخيرا امتدت بلا وعى . وقبل أن تصل إلى الجهاز كان الرنين قد توقف !

ـــ « حسن .. كنت أريد هذا فى الواقع ! » .

كذابة ! وانقلبت على فراشها فأدارت إليه ظهرها : كأنها خاصمته .. وتأملت ورق الحائط البنفسجى اللون ذا الفراشات والزهور والحمام . وكاد النوم يخالط أجفانها من جديد لولا الرنين الذى انبعث من خلفها مرة أخرى :

— « إنه .. هو .. » .

لكنها لم تصبر هذه المرة فجلست مضطجعة ورفعت السماعة قبل أن ينقطع الرنين هذه المرة .

لم يبدأ أحدهما الآخر بالكلام ، ظلت السماعة مرفوعة عند طرفى الخط فى صمت والسلك بينهما مهيأ لأن ينقل خفقة النفس ، ولما لم يأت إليها حديثه غالبت نفسها وهتفت :

— آلو .. نعم .

« آلو ، نعم » الاثنان معا كان هو طبعها ، وحملت الكلمات غيظا واضطرابا وحبا وكرها وأملا فى الرضا والصلح ، فإذا بالصوت من الطرف الثانى يأتى أكثر هدوءا ورقة وترددا واضطرابا كأنه صورة لقروية حيية تتعثر فى ثوبها الطويل ، إنه ليس هو ، صوت رجل غريب .

— من ؟ !

— هل تأذنين لى يا سيدتى أن أتكلم ؟

آ ..؟ ! ليس الأمر رهيبا إلى هذا الحد ، ما دمت لن تقول شيئا مما يحتاج إلى استئذان !

فاضطرب الصوت وتنهد وخيل إليها أن القروية الحيية مرت على سطر من الرجال فحملقوا فيها فعثرت فى ثوبها الطويل ، وعاد الصوت يقول :

— آ .. نعم .. إننى .. فقط .. لا أريد .. أريد ..

وأدى قلبها النشيط وظيفته الطبيعية فى هذه الوهلة . تخيلته — وقلبها يخفق — شابا يعالج التجربة الأولى . أحبها من أول نظرة ويحاول أن يخطف كفها ليطبع عليها قبلة ، وتخيلته شيخا مسنا رأى فى شبابها صورة لحبيبته التى ماتت منذ ثلاثين عاما ، وتخيلته أحد الرقعاء الذين يختبئون خلف « المسافة »

ليقضوا بذلك مأربا رخيصا . لكنها قالت تشجعه على الكلام حين أحسست فى الصوت براءة كانت أذنها تشربها شربا :

— تكلم ، على كل حال ما أظننى سأقسو عليك حتى لو أخطأت .

— آه .. أشكرك : لقد وقع لى أكثر مما كنت أتوقع منك ، إننى أراك فى أماكن كثيرة إلا فى مكان واحد .

— طبعا . (هىء . هىء هىء) .

وضحكت كما يضحك خلى البال ، وانتهزت فرصة المهموم حين يجد ما ينسيه الهم ولو إلى حين . على أن الصوت كان فى نداوة النبات النامى حديثا مطمئنا جميلا كأنه « مسكن » . وتمرجح العصفور أمامها بالغصن وحامت حوله عصافير ، لعلها ذكور . فخطر ببالها تزاحم الرجال حولها .

إنهم هم أنفسهم الذين نبهوها إلى أنوثتها الفوارة . أخبرها بعضهم بوقاحة ، وأخبرها بعضهم بوله ، وأخبرها الباقون بحياء . وهذا الأخير الذى يتحدث ، أحد رجال الصنف الأخير .

— رأيتك فى نادى السيدات ليلة أمس ، وأراك تتعشين أحيانا فى مطعم الحرية أمام سينما تريومف . وجلست على مقربة منك ذات ليلة وأنت فى إحدى المحلات حيث كنت تتناقشين فى موضوع نسائى ، وقد التقط المصور ليلتئذ صورة لك .. وأحيانا تتحدثين فى ركن المرأة . وأنا أتعقبك لكن بغير طريقة التلميذ الذى يتربص لفتاته أمام باب مدرستها .

وضحك « الصوت » ضحكة مثقلة ، يبدو التعب أو الخوف على صاحبها . لكن معظم الفتنة التى تدخل رءوس النساء لا تختار إلا طريق الأذن . فأحست المرأة لهذا الكلام طعما . لكنها أرادت من باب التضييق على

المتحدث أن تعرف ما يريد ، قالت :

— من الممكن أن أدعى أننى شممت رائحة روحك . وربما كانت غير نفاذة ، لكنها هادئة ، ولذلك تستطيع أن تبدى رغبتك .

فأسرع كأنه تلميذ نجيب :

— أبدا . لا شيء بتاتا . كل ما أطمع فيه أن تأذنى لى فى أن أحدثك .. أسمع صوتك وأبثك بعض همومى كامرأة ذات رأى وتشارك فى المجتمع ، ثم أطوى المسافة بينى وبينك سريعا بوضع السماعة على التليفون . هذا كل ما فى الأمر !

وخيل إليها أنه راكع عند قدميها يقبل أطراف ثوبها فى عبادة ، إنها لا تنتقى عطرها هادئا ، عطرها ذاته ذو جلبة وضوضاء يمشى أمامها وينبه الخياشيم بعنف .؛ وهذا الإنسان الذى أحبته وكرهته وتعطيه وهى راغبة فى حرمانه وتحرمه وهى راغبة فى إعطائه . هذا الإنسان بين الناس من نوع عطرها بين العطور ، إننا نختار أشياءنا بمزاج واحد وننظر إلى ما حولنا بطريقة لا تخلو من قاعدة .

على أنه لذ لها أن تعطيه وعدا ولو طوال المدة التى يخيم على علاقتها بالرجل الأول ظل الخلاف ..

* * *

وفى الصباح فى نفس الميعاد دق التليفون .

— إننى لم أنم ليلة أمس ، كنت سعيدا .. سعيدا .. لا داعى لأن تتكلمى ، اسمعى صلاتى أولا .. ثم ضعى السماعة إذا شئت ، كل ما أريده أن تسمعى منى ، لا أنام ليلا ولا نهارا كأن الوقت السعيد يرفض أن ينامه الناس . ولكن ..

— لا .. لا بد أن تتكلم . أنت شخصية لطيفة ومن حقى أن أراك . أنا امرأة خالية وفوق ذلك فإنى أملك قلبا .

— ليس أحب إلى من ذلك ، لكن أنا واثق أنك ستغيرين رأيك إذا تواجهنا . من الجائز أن تعرفى وجهى وتذكرى أنك رأيتنى من قبل . أنا لست مشوها ولا دميما . أنا إنسان عادى . لكننى عاجز عن أن أكلمك وجها لوجه .

* * *

وبالطريقة التى تؤلف بها صورا لرجال التاريخ ممن لم يدركوا عصر التصوير رسمت لهذا الرجل صورة من نبرات صوته وخفقات أنفاسه .. ورائحة كلامه .

رسمته نحيف القامة واسع العينين شفته السفلى شاحبة ذات شقوق ، بوجه مستطيل وذقن كثمرة الكمثرى .. وليست تدرى لماذا . فقد كان على كرسى خديه حمرة غير طبيعية كأنها أثر التهاب . وشعره أسود متماسك كأنه قطعة من القار . مستند على جدار عند الناصية ويداه فى جيبى بنطلونه واقفا يتلفت كأنه ينتظر حضورها فى لهفة ، وفى عينيه أثر سهر أو فكر أو دموع ، وإذا عجز لسانه عن التعبير كما يقول تولت نظرته الإعراب عما فى نفسه كأنما عيناه متصلتان مباشرة بباب روحه .

جبان . ولكن إشارة تشجيع واحدة تطلق من قيده المحب المجنون الذى يروى الظمأ فى نفسها العطشى باستمرار .

هكذا رسمته . صورته فى الرجال تعادل رائحة عطر البنفسج يصافح بلطف وينبه برفق ، أما الرجل الأول فهو على النقيض .

ظلا هكذا طوال شهرين . تترقب حديثه بشوق كأنه محدث عام يخاطبها خلال الراديو . وفى هذه المدة أخبرها بأنه لا يراها فى الخارج . إنه لو لقيها لعرفت فورا أنه هو . هو الذى يكلمها حتى ولو لم يرفع صوته ، لأن ملامحه ونظراته ستنم عليه .

ولما كانت رغباتنا لا تعرف جيدا فإن حلاوة الموقف بينهما كادت تبوخ . واعترفا معا بأن هذا وضع لا يخلو من التمثيل . لا بد إذن أن يلتقيا .

وفى هذه الليلة لم ينم هو . واستعادت هى أحلام العذارى .

وجلست فى المشرب الكبير الذى تواعدا على اللقاء فيه .. كان مزدحما بالناس الداخلين والخارجين من كل سن . وكان جسمها ينتفض انتفاضة المبلول كلما رأت رجلا تنطبق عليه أوصافه التى رسمتها . وحين يغير اتجاهه فلا يقصد إليها تعود فتنتظر .

وأخيرا — وبعد أن مضى على ميعاد اللقاء نصف ساعة — جلست تقرأ فى صحيفة ، وبينما هى مكبة عليها أحست أن أنسانا جلس على الكرسى المجاور . كان قد جلس فى هدوء وصمت على مقربة منها حتى كادت قدمه تلمس قدمها . فلما أحست به فتحت فيه عينيها الواسعتين اللتين وسعهما التجميل أكثر وأكثر .. وهتفت بصوت يكاد يكون همسا :

— أنت ؟ ! .

فهز رأسه مؤمنا دون أن يقوى على أن يقول شيئا .

وفى هذه الفرصة انعكس الموقف ..

لم يكن هو الذى يتأملها فقد تأملها وانقضى الأمر . وجاء دورها هى لكى تتأمله . وكان الموقف بينهما مثل عملية قياس البدلة الجاهزة فى أحد المتاجر من النادر أن تجىء مضبوطة من كل نواحيها .

لقد فصلت « الشخصية » وعاشرتها منذ شهرين وكلمتها فى النهار وناجتها فى الليل ، وزاحمت الرجل الأول فى خلايا قلبها .. وأطلت عليها مع الصباح من الشباك القبلى داخلة مع شعاع الشمس .

لم تكن الذقن على هيئة كمثرى ولا الشعر مثل قطعة من القار ، والمصيبة أن العينين لم تكونا فصيحتين . كان فمه صامتا ونظراته صامته ، وحبات عرق قدر رءوس الدبابيس تلمع على جبينه تحت مصابيح القهوة .

وفى اللحظة التى كان الخادم يقدم فيها الشراب كان هو يكتب على المنضدة بأصبعه السبابة حروفا لا تقرأ . وكانت هى تسأل نفسها :

ــ لماذا لم آنس إليه ؟

إنه لم يدع لها شيئا تكشفه بنفسها . إن الكبار مثل الأطفال يستلذون « الكشف » حتى ولو أدى إلى التكسير . والمرأة أقوى فضولا من الرجل . لقد أعطاها أثمن ما عنده قبل أن يلقاها ، فلما ظلل الحياء أو الفتور على لقائهما أحست كأنها تهوى من فوق برج .

وهنا ذكرت رجلها الأول الذى يعطيها كل يوم شيئا جديدا حتى لم يترك فضولها متعطلا بلا عمل .

كان صاحبنا يحكى لها ــ مرة أخرى ــ عن الظروف التى جعلته يخرج معها هذه التمثيلية ، وكلما أمعن فى الحديث أمعنت صورته فى البعد عما تصورت .

وشيئا فشيئا ظلل الفتور ، وذكرت أن هذا ثالث رجل أو رابع رجل يريد أن يخرج الأول من الحصن .. بلا جدوى .. وباتت هزيمتهم جميعا نصرا له أحرزه فى صمت ودون عناء .

نظرت فى الساعة فلم ينتبه . كان يتكلم فيما فات كأنه يقرأ تقريرا وعيناه

نحو رخام المنضدة ويده على كأس فارغة . ثم نظرت إلى الساعة وادعت أنها على موعد آخر .

وضغط على يدها وهى تنصرف ..

فى الصباح رن التليفون . كان الشعاع المنحرف واقعا على الجهاز ، وكانت وهى جالسة فى فراشها والخادمة تقدم لها كوبا من ملح الفواكه . فأشارت إليها أن ترد . وبعد إشارة معينة قالت الخادمة :

— سيدتى نائمة .. وأمرتنى ألا أوقظها .

وبعد ربع ساعة رن الجرس رنينا متصلا ، وكانت لا تزال فى فراشها وطعام الفطور بين يديها على صينية معدنية .. ورفعت السماعة وقلبها يدق فجاءها صوت نسائى مستعجل نتنبه لسحره لأنه دائما يستعجلنا . صوت آنسة « الترنك » يقول لها :

— المنصورة .

— آلو .. نعم « الاثنان معا » آلو .. نعم ، آلو .. نعم ..

هذا أنت يا حبيبى ؟ ! ولماذا لم تكن فى القاهرة ؟ كانت جراحة مستعجلة ؟ .. آه .. تعذبنى بكل صنف ! تخشى أن تموت ؟ ..

على كل حال مستعدة لأن أفديك ..

نعم .. سأحضر إليك .. ونحن هكذا أبدا !

خطيئة وغفران

كنا فى الدار وحدنا . الدار على حدود القرية . أمامها الترعة وخلفها الحقول وخط من الأشجار المختلفة النوع يمنح الطريق الظل أثناء النهار والوحشة أثناء الليل .

والليل شديد السكون ، يحرك الغرائز ويثير الرغبات ويهيج الخوف فى نفوس المنفردين . وسهرت أمى تقص على قصة زواجها من أبى وكانت تكلمنى فى ذلك العهد كما تكلم الطفلة هرتها فتحقق لنفسها الرغبة الطبيعية فى أن تتكلم ، تضع ثديها فى فم أحد الصغار من إخوتى وتنكفىء نحو الأمام فى وحشة ثم تحكى ، وفى حائط الحجرة مصباح معلق ، وعلى الحصير ثلاثة أطفال وفى حجرها واحد ، وعلى الفرن « حلة » خلت من الطبيخ أثناء العشاء .. والكلب ينبح فوق السطوح . وخيالى يحلم بأن فى الحقول ذئبا .

وكانت تبدو جميلة حتى ولو كانت حزينة . وفى دقة ملامحها بساطة قروية غنية عن الغسل والتلميع . وكانت تحكى بطريقة تجتذبك إلى صفها وتشعرك بأنها ضائعة الحق فى الحياة .

وكثيرا ما كنت أخر صريع النوم وصوتها ينصب فى أذنى فأرقد حيث أنا فتزحزحنى لآخذ مكانى فى الصف على الوسادة المشتركة وتحت الغطاء الواحد مع بقية الأولاد .

كانت ليالينا خالية ، خصوصا فى الشتاء ، ففى هذا الفصل كان أبى يتأخر عن الحضور إلينا لأنه كان شاقا عليه . كان موظفا صغيرا أو عاملا كبيرا فى إحدى محطات السكة الحديد على طريق الجبل ، وكان يؤثر أن يعيش هناك

وحده فهذا أيسر عليه وأرخص له . وفى نهاية كل أسبوع أو أكثر — على حسب الظروف كان يأتى إلينا محملا بأشياء : عواطف وفواكه وعيدان قصب .. وخضروات وغيارات تحتاج إلى غسيل . وشعر طويل يحتاج إلى حلاقة ، ونقود إذا كنا فى أول الشهر .

ويظهر أبى فى دارنا فجأة ، ثم يختفى عنا فجأة . كأنه ضيف ، أو كأنه طيف .

ولطول غيابه عنا كانت أمى هى الشخص الأول فى حياتنا وكنت أنا الشخص الأول فى حياتها بالنسبة إلى إخوتى .. لذلك .. كنت أشعر بإحساس الغلمان — أنها تأنس إلى .. وحين يسكت الليل وتهجع القرية فى بكور وبلادة كانت تسامرنى وتحكى لى من شئونها ما أفهم وما لا أفهم .

وأهم قصة سمعتها منها هى قصة زواجها بأبى ، كانت تكررها بقصد أو بغير قصد . تنسى فتعيدها أو تتسلى فسترجعها. وكنت أستمع لها فى بعض الليالى والنوم يضغط على رأسى فيكاد عنقى ينثنى من ضغطه .

كان أبوها رجلا مسنا أنجبها على شوق بعد أن حرم الذرية طيلة أيام حياته . وقد عجبت أمها من ثمرة آخر الموسم هذه التى لعبت فى بطنها على غير انتظار . ثم جاءت بها جميلة مليحة كأنها لا تنتسب إلى أسرتها ، وصارت فى بيت أبيها كشمعة صغيرة يخاف عليها صاحبها أن تذوب .

لكنها لم تكد تبلغ حدود العاشرة حتى فقدت أمها ، وفى حدود الثانية عشرة مات أبوها فى معركة قامت بين العمال الذين يحفرون المصارف . وكان أبوها أحد الملاحظين هناك فأخذ ضربة « كوريك » على رأسه ، فقضى نحبه فى الحال .

وأصبحت الطفلة الكبيرة منذ ذلك اليوم فى رعاية عمها .

(أشياء للذكرى)

قصت على هذه الحكاية عدة مرات وفى ليال من كل الفصول . وكانت ذكرى أبيها أشد وقعا على قلبها من ذكرى أمها . كانت تصف لى طريقة دخوله عليها واستقبالها إياه والفواكه التى كان يحملها إليها فى قرية لا تعرف الفواكه . والمناديل الحمراء والمناديل الخضراء ذات « الترتر » وغوايش الفضة وضفائر الحرير .

أما فترة إقامتها فى بيت جدى لأبى أو فى بيت عمها هى ، فقد كان الغموض مخيما عليها . لم تكن تحكى لى عنها شيئا ذا بال وكنت أفهم من تقلصات وجهها وتضييق عينيها حين تتعرض لهذه المرحلة أنها أيام غير سعيدة وكفى .

ولم أكن أرى على وجهها السرور فى الليالى التى كان أبى يزورنا فيها .. كان فى بعض الأيام يأتى إلينا عصرا فنراه ونحن نلعب على الطريق فنجرى ونتعلق بملابسه ونحمل عنه بعض « الحاجات » التى يحتضنها ، وكان فى بعض الليالى يأتى إلينا متأخرا بعد أن ننام جميعا ، فكنت أستيقظ — وأنا أكبرهم — على هزات عنيفة من يده ويستيقظ من هم أصغر منى بعد أن يضع على فم أحدهم شيئا حلوا : برتقالة ، أو قطعة من الحلوى ، أو شيئا مما يفرح الأطفال ..

وكانت أمى تزم شفتيها وتضيق عينيها وتدمدم ليدعنا نائمين ، ولكنه ما كان يسمع .

ويتكلم الأبوان فى شئون عامة ، وقد يتكلمان فى شئون خاصة ، حتى إذا ما غلبنا النوم رقدنا فى أماكننا ، أما هما فكانا يرقدان إلى جوارنا أو يخرجان — إذا شاءا — إلى مكان آخر .

ويعود المرح إليها عقب سفره ، أو يعود إليها طبعها الهادىء على الأقل ، وتمشى الحياة فى الدار على صورة غريبة ، صورة ناس يأخذون ولا يعطون

وينعم عليهم فلا يشكرون .

واجتاحت قريتنا فى هذه الأيام الشتوية موجة من الحرائق ، وكان الجو دائما فى صف المجرمين ، فالرياح الشمالية الغربية تهب جافة لا ماء فيها ، وتنشط أثناء الليل نشاطا مخيفا تزقزق به سقيفة الخطب فى كل دار ، وما تكاد العيون تغمض حتى يستيقظ الناس على الصراخ وعلى جرى الفلاحين بنعالهم الثقيلة أو أقدامهم الحافية إلى حيث تشتعل النار ، يطفئونها وهم يتصايحون ، ويفرغ عليهاالنسوة الماء من البلاليص وهن يولولن .

كنت أستيقظ فى كثير من الأوقات فأجد الليل ضاربا أطنابه والسكون مخيما كثيفا ، يوقظنى برغوث ضل الطريق فدخل أذنى ، أو حلم مزعج يوحى إلى أن حريقا شب قريبا من دارنا . وأفتح عينى فأرى سطرا من الأطفال يرقد تحت الغطاء والأم قريبة منهم تتمدد ناحية العتبة ، والمصباح يلفظ أنفاسه من جهد السهر ، وألقى نظرة على النائمين ، ثم أعود فأستأنف النوم .

وأرقت فى إحدى الليالى من شيء مبهم لعله كان جرجرة الريح فى الحارة حلمت حلما غير واضح المعالم صارخا مختصرا تبينت منه أننى أسمع وقع حوافر حصان خلف الحائط الذى يفصل بيننا وبين الطريق . وتحركت فى مرقدى ، ورفعت بصرى المثقل بالنعاس إلى المصباح المجهد ، ثم تنبهت تماما على صوت حاد .

كانت الطفلة الصغيرة بنت السنتين تبكى وهى راقدة ، أدركت أن أمى ستستيقظ لتقضى لها حاجتها ولكن بلا جدوى .. واستمر بكاؤها وارتفع صوت يشوبه الاحتجاج صارخا تخالطه بحة الباكين . وأخذت الطفلة تنادى : « أما .. أما ..أما » لكن بلا جدوى ، ودفعنى الحنان الأخوى

فتخطيت ثلاثة أجسام تنام تحت الغطاء حتى وصلت إليها وأخذتها وأجلستها فى حجرى ، فاستأنست بى قليلا والشهقات تقطع صمتها ، ثم استأنفت نشيجها مرة أخرى وأخذت تنادى على أمها .

كنت واثقا أن أمى تقضى حاجة لا يقوم بها سواها ، عرضت لها فى الليل وهو طويل تعرض فيه مثل هذه الحاجات . لكن غيابها طال ، ولم يعد التربيت على كتف الطفلة مقنعا لها ، فأخذت تصرخ ولكن صراخها أصبح عاجزا بعد قليل عن تبديد سكرة النوم من رأسى ، فصرت أترنح وأنا جالس وهى فى حجرى حتى اصطدمت ذقنى بأعلى رأسها عدة مرات .

ثم نادت ففهمت أنها تطلب ماء ، فقمت أسقيها ، كان ذلك بعد مرور ثلاث ساعات فى نظرى أنا وعلى طريقة حسابى .. وفى اللحظة التى كنت أضع فيها الكوز على شفتى الطفلة سمعت الباب الخارجى للدار يصر فى حذر من المستحيل أن يكتم خصوصا فى الليل عندما تتضخم الأصوات بفعل السكون فتبدو وكأنها انبعثت من بوق ، وهر الكلب فى الساحة بطريقته حين يستقبل إنسانا يعرفه . وقرقرت أوزة وردت عليها أوزة أخرى ، ثم اندفع باب الحجرة الشتوية التى ننام فيها فدخل الهواء البارد قبل دخول أمى ..

شهقت فى جزع مغلوب عندما وقع بصرها على مباشرة : « هل أنت صاح ؟ » وصرخت الطفلة كما يصرخ الغريق . وتلقفتها بين ذراعيها قبل أن تخلع جلبابها الأسود الذى لا يلبس بالليل ولا ترتديه إلا إذا كانت خارجة من الدار .

أما أنا فلم أفهم شيئا ولم أقل شيئا ، ولم تحدثنى هى بشىء كذلك ، بل ألقمت الطفلة — المتأخرة فى الفطام — ثديها ، ثم انكفأت نحو الأمام فى ذلة لا أدرى مأتاها ، وقطبت جبينها وضيقت عينيها ، والمصباح المجهد يرمى ببقية

النور على (المنظر) وعيناى تلاحظانه حتى غرقت فى النوم .

وتكرر الموقف فى ليلة تالية وإن اختلف السبب الذى أيقظنى من النوم . حلمت كأنى جالس على شط ترعة والدنيا شتاء والماء مثلوج ، وكأننى أضع قدمى فى الماء الشديد البرودة ثم أسحبهما وأعود فأرجعهما إليه وأنا أوحوح ، حتى استيقظت .

رأيت باب الحجرة الشتوية مفتوحا علينا،ليس مفتوحا على اتساعه لكنه موارب وتيار هواء بارد يتدفق كأنه الماء من بربخ ، وقدماى خارجتان من الغطاء أو هو منحسر عنهما والهواء يلفحهما . وإخوتى راقدون فى أوضاع غير منتظمة فى سطر غير معدول والصغيرة لا غطاء عليها ، قذفته برجلها ثم هرشت فرفعت جلبابها عن نصفها التحتانى فبدأ عاريا ، والمصباح متراقص الذبالة .. والأم ليست فى الحجرة .

ناديت عليها فلم يأتنى رد وهممت أن أقوم فأحكم إغلاق الباب لكننى خفت ثم تشجعت ففعلت . وما هى إلا برهة حتى استيقظت الصغيرة وعادت المأساة ، أخذت تنادى ثم انخرطت فى البكاء فوضعتها على حجرى وجعلت أمسح لها فمها وأنفها ، لكننى لم أطق فبكيت أنا الآخر .

ولم يطل الموقف حتى سمعت صرير الباب الخارجى وهر الكلب لاستقباله انسانا يعرفه . ثم انفرج باب الحجرة الشتوية علينا كما حدث فى المرة السابقة ودخلت أمى فى جلبابها الأسود وكان أول ما فعلته أن دعت على الطفلة « بكسر الرقبة » وكان دعاؤها مشحونا بنقمة عرفت فيما بعد أنها نقمة الذين ينغص عليهم غيرهم شيئا يجدونه لذيذا .

واستمهلتنى حتى تغسل قدميها لأن الأرض كانت موحلة قليلا . ثم ألقى المصباح ضوءه عليها والطفلة تمتص لبنها فى صمت .

***

منذ خمسة عشر يوما وأبى لم يجىء لنا ..

وأحسست نحوه بشوق شديد وكنت كل يوم أتطلع نحو الجهة التى يصل منها إذا جاء من سفره لكن بلا جدوى ، ثم أنسى فأنخرط فى اللعب مع أندادى الصبيان .

وعند مدخل هذه الليلة سألت أمى عنه ، فرددت على بعصبية بأنها لا تدرى ، ثم ختمت ردها بالدعاء على : « جاتك نيلة » .

سألت نفسى : لماذا يكون الموقف هكذا ؟ وهل سؤالى هـذا كان يستدعى هذا الجواب ؟ وطبعا لم أفهم .

ثم آوينا إلى فراشنا وأخذ كل منا مكانه من الصف .. وألقى علينا الغطاء ، لكننى ما لبثت أن استيقظ على عراك :

ــ سأوقظهم .

ــ لا توقظهم .

ــ إنهم أولادى يا امرأة .

ــ أنا أعرف ذلك أيها الغبى .

ــ أتشتميننى ؟

ــ ماذا أصابك هناك ؟ لعلك تحب فاجرة من الفواجر . أو غجرية من الغجر : لسنا فى حاجة إليك ما دمت هكذا .. ابق هناك ، هل جننت ؟ أتجرنى من شعرى ؟ يا ..يا..يا..

وأخذ صوتها يبتعد وجسماهما يتدافعان إلى الخارج ..

وانفتح باب القاعة فدخل البرد ثم أقفل وغاب الصوت .. وخيم السكون على مرقدنا وذرفت عيناى دمعة لست أعلم فى صف من كانت ، هل كانت فى صف أبى أم كانت فى صف أمى أم كانت حسرة على الاثنين . ؟

وحاولت ألا أنام قبل أن يعودا لكنني لم أفلح .

وفى الصباح أكلنا برتقالا ومصصنا قصبا ورأينا أبى وهو مسافر . كان طويل الشعر مهوش الذقن . انتظر الحلاق فلم يأت إليه . وخاف أن يفوته القطار فترك الهدايا والنقود وأخذ معه شعره الطويل وملابسه المغسولة قبل أن تجف تماما ثم رجع إلى عمله .

ورسبت فى نفسى بالنسبة لأمى فروض غير مفهومة لكنها غير مريحة . حتى صرت أستيقظ من النوم بحكم قلقى عليها وعدم رضاى عن خروجها .

وتكرر الموقف . ودخل البرغوث فى أذنى فهببت من النوم . وألقيت نظرة عاجلة على مكانها من الصف كما تتفقد المرأة حليها فى الزحام ، فوجدته خاليا والمصباح ينظر إلينا من فوق بعينه الحمراء ، وحلة نحاسية سوداء الظاهر قابعة على قبة فيها ماء ساخن وإلى جوارها كوز . ولم تستيقظ الصغيرة ولم يتحرك أحد من إخوتى النائمين .. وكل شىء نائم كأنه ميت .. إلا أنا .

وسمعت صرير الباب الخارجى ثم دخلت على فى جلبابها الأسود .

لم أتكلم فحسبتنى نائما فانتصبت فى وسط الغرفة تخلع الجلبات الأعلى فانبرى إليها صوتى حازما حادا يسألها فجأة :

— أين كنت يا أمى ؟

فهتفت من المفاجأة بصوت مهموس :

— بسم الله الرحمن الرحيم .

ثم كورت الجلباب وقذفتنى به فى وجهى فانطفأ المصباح من لفحة الهواء ، وسحبت أنا الغطاء على وجهى وأبعدت الجلباب بيدى ونمت ودمعة على خدى وفى حلقى شهقة حاولت ألا تسمعها ، أما هى فقد أخذت مكانها من الصف وهى تدمدم والحجرة ظلام وتشتم أناسا كانوا السبب . من هم ؟

لست أعرفهم .

استيقظت الليلة من النوم على يد تهزنى وكانت ثقيلة ، كانت يد أبى . رأيته مضطرب الأنفاس كأنه حصان حل فورا من العربة وكان وحده .. لم أر بجواره أمى .

وحين استويت جالسا على الفراش سألنى :

ـــ أين أمك ؟ أين الملعونة ؟.

فأجبت بصوت ناعس :

ـــ لست أدرى ، أنا نائم كما ترى .

فاستطرد يقول بعد أن قام وجلس عند العتبة المنخفضة ومد فيها ساقية :

ـــ عال عال ، والله العظيم .. كنت لا أصدق ما أشيع عنها ، وهأنذا جئت .. الباب الخارجى مقفل بلا مفتاح .. مردود فقط . والعيال نائمون وحدهم .. أين هى ؟ لسنا نعلم .. غير أن التى تخرج فى مثل هذا الوقت من الليل والبرد قارص وفى الأرض بقايا أوحال ، امرأة ليست شريفة الغرض .

وسكت كأنه يفكر ثم تنهد ، ثم استطرد :

ـــ عال والله العظيم ، ناس تحفى أقدامهم فى سبيل القرش ويبيتون فى الجبال ، وآخرون ينامون فى الدفء ويصنعون ما يصنعون !.

وضحك ضحكة عصبية . كان خيرا له وأدعى إلى الراحة أن تدمع عيناه .. لكنه ضحك ثم ضحك .

وقام إلى قبة الفرن فأحضر ماء ساخنا فى صينية نحاسية ووضع رجليه فيها وحمل رأسه على كتفيه فى جلسة مغلوبة ، وكان فى العتبة حزمة من عيدان القصب غير خفيفة حملها عند نزوله من القطار غدة كيلو مترات ، وحذاؤه ذو الرقبة الطويلة مجنوب إلى ناحية ، عليه كثير من أوحال الطريق . وكان

ظهره إلىَّ وهو جالس ، فرأيت شعرا مهوشا تحت قلنسوة من الصوف ، وكتفين عريضتين عليهما سترة من الكاكى .

وكان يبدد الصمت بين لحظة ولحظة بكلمته المألوفة « عال والله العظيم » . ويبدو أن حظها العاثر دفعها إلى الخروج قبيل الوهلة التى وصل فيها أبى ، لذلك فإنه انتظر المدة كلها واستطاع أن يدرك فى أى الأغراض التى تقضى فيها مثل هذه المدد :

وصر الباب وهر الكلب وقطقط الوز فخفق قلبى .

وانفرج باب القاعة عن وجه أمى ودخل قبلها الهواء البارد ، فرأت أبى جالسا ورجلاه فى الماء الساخن ورأسه محمولا على كفيه ، فوقفت ذاهلة صامتة وأسندت بظهرها الباب الذى أغلقته .

وتوقعت أنا شيئا خطيرا سيحدث ، لكن الرجل ظل فى مكانه كأنه تجمد فيه . وبقيت هى فى جلبابها الأسود مسندة الباب بظهرها ويداها إلى الوراء.

وأخيرا قامت الطفلة تصرخ بحكم العادة وتنادى على أمها ، وكأنما كان هذا صماما قد انفتح فتحرك أبى من مكانه وهوى على زوجته ضربا بكل ما كانت يده تصل إليه .. ثم سحبها إلى غرفة أخرى .

كنت أسمع وأنا فى مكانى — على الرغم من بكاء الطفلة — سبابا وشتائم بعضها حريمى وبعضها رجالى ، وتنفيضا كتنفيض المراتب ، وبكاء وعويلا واستعطافا فى بعض الأحيان ، ونباح الكلب خائفا مذعورا ، وفترات صمت تقطع هذا كله ، وفترات انفعال تعقب الصمت . وكفت الطفلة عن البكاء وتكورت ثم نامت ، واستغرقت أنا فى النوم أثناء فترة من تلك التى خيم فيها السكون على الدار .

ولم يسافر أبى وقت الصباح كما كان يسافر .

وأحسست كأن جدارا فى دارنا يتداعى ، كأن شيئا ينتقل من مكانه .. رأيت أمى تجمع ملابسها وهى تبكى وتضع فى صندوقها « الحاجات الصغيرة » وكان أبى يلاحقها وهى تفعل ، وينظر إليها فى صمت طويل ثم يقذفها بكلمة كلما رأى دمعها يجف ، فتعود إلى البكاء .

وبعد أن تحركت قافلتها المنحوسة إلى بيت خالها فى قرية أخرى قبل أن تشرق بقليل شمس أحد الأيام ، رأيت أبى يجلس القرفصاء على باب إحدى الحجرات ويبكى حتى سال لعابه على ذقنه غير المحلوقة ، كما كانت تفعل أختى الصغيرة بالليل .

أخذت معها ثلاثة من الأولاد وهى خارجة : بنت على كتفها وولد فى يدها وآخر يمشى وراءها . أما أنا فقد بقيت مع أبى .. وبكيت مثله ونحن ننظر إلى البيت الخالى ، ونشم أنفاس السكون والخراب منذ صبيحة ذلك اليوم .

وبعد أن أخليت الدار من كل حى حتى الدجاج والوز ، أدار أبى فى بابها الخارجى مفتاحا غليظا من الحديد فأقفله ، ثم سار وسرت من خلفه . وكان وجهه فى هذا اليوم يبدو كبير السن كأن الرجل قطع عشر سنوات من عمره فى الأيام السالفة .

وأفهمنى ونحن فى القطار أننى سأبيت معه ليلة واحدة فى مقر عمله فى المحطة الصحراوية ، وبعد هذه الليلة سيذهب بى إلى القاهرة .

كان نادر الكلام فى هذه الفترة ، ويؤلمنى أن أقول أنه أمسى قبيح المنظر ، أشبه برجل فى ميدان القتال لا يحلق ولا يغتسل ولا يغير ثيابه ، كل الإفرازات التى يقذف بها جسمه تترسب عليه ، وهو — لحزنه — لا يفكر إلا فى الذى حدث .

وبتنا لا نتكلم،وأحسست أننا نمشى إلى مجهول ، وأن نصيبى الشخصى

من هذا المجهول أكبر من نصيب غيرى بكثير .

ثم حلق واغتسل وقت الصباح ولبس جلبابا من الصوف بنى اللون وأخذنى إلى القاهرة .

كنت أعرف أننى ذاهب إلى عمتى لأقيم عندها إقامة دائمة ، ولكننى كنت وجلا من القاهرة ، وكنت أجفل من عمتى ، ومن الإقامة فى بيتها . وخيل إلى فى ذلك الوقت أن الإقامة تحت جناح الأمهات — حتى المخطئات منهن — أشد دفئا ونعومة للأبناء من الإقامة تحت جناح امرأة غير أمه .. هكذا خيل إلى .

ولم أكن رأيت عمتى كثيرا ، وفى الحق أنها استقبلتنى أنا وأبى بحنان ، وضربت بكفها المستديرة الصغيرة السمينة فى صدرها المكتنز حين رأت وجه أبى ، ثم تركانى فى حجرة ودخلا حجرة أخرى .

فهمت أن أبى يحكى لها ما جرى وكان صوتها يأتى إلى مشحونا بالعاطفة ، أو مهزوزا من العاصفة ، أو مبحوحا من البكاء . وكانا يهمسان ويلغطان ويصمتان ثم يستأنفان الحديث .

وبات أبى ليلته معى ، وأحسست ونحن على الفراش أن فى صدره هما وكأنه يريد أن يقول شيئا ، ولكنه تنهد ونادانى فرددت عليه دامع العينين . قال :

— اسمع يا عوض ، أملك أصبحت غريبة عنك منذ اليوم ، لقد طلقتها لأنها عملت أشياء لا يرضى عنها زوج .. هل أنت فاهم ؟ المهم هو أن تجتهد فى دروسك ، عمتك لا ولد لها وستكون ابنا لها ، وزوجها رجل طيب ولو أنه سريع الغضب ..و..

وأحسست أن صدره يضيق وأن الكلام لم يعد سهلا عليه فتوقف

وبكى . وانخرطت أنا فى بكاء طفلى غزير طويل الشهقات ، فكان منظرا مؤثرا .

ولم يكلمْ أحدنا صاحبه واستغرقت فى النوم .

واستيقظت عند الفجر على فمه يقبلنى . وكان يودعنى بدعاء وهمس ولهفة .. رجل ألفى نفسه على حين بغتة ، وحيدا بعد أن كان فى زحمة الأسرة . وفرارا من الموقف تصنعت النوم حتى إذا ما سمعته يغلق الباب بكيت ووجهى مغطى باللحاف .

ورأيت زوج عمتى على مائدة الفطور وقت الصباح .

كان يعيش فى بحبوحة ، تاجر عطور ، يبيع العنبر والعنبرول فى دكان صغير جدا فى حى السيدة زينب ، لكن علامات الثراء ظهرت عليه فجأة ولسبب غامض ، وتقول الناس الأقاويل ..

ورأيت عينيه المجهدتين الحمراوين وهو ينظر إلى للمرة الأولى فى بيته ، ثم قال وهو يبتسم وبصوت كأنه هدير : « أهلا بك يا عوض » .

وجفف وجهه بالفوطة ، وجهه الأسمر الترابى الداكن الذى لا يدعو إلى الطمأنينة ، والذى يذكر فورا بوجوه المهربين .

وتناولت فطورى على مائدة شهية تدور حولها خادمة ، وعليها بيض وزبد وجبن ومربى وزيتون ولبن .. كل هذا مع المدمس ، فبهرنى العز .. لكننى كنت أمد إلى الطعام يدا جعلها الخجل تتعثر بين الصحون .

ثم دخلت إحدى المدارس الابتدائية فى حى السيدة ، وألفت الحياة فى بيت عمتى ، ونسيت دارنا فى القرية ، وكان أبى يأتى لزيارتنا بين حين وحين ويحمل هدايا ريفية من البلدة التى يسكنها ، وقد سره أننى تلميذ ناجح ، ورأى فى ذلك عوضا له عن حياة اعتبرها تالفة .

ولم أكن أرى زوج عمتي كثيرا ، وقليلا ما كان يتعشى معنا .. وكان لا يعود إلى بيته الا فى وقت متأخر من الليل وينهض باكرا فى الصباح وهو يشكو الصداع وقلة النوم . ويسعل من أعماق صدره وهو واقف على حوض الغسيل . وينظر إلى إذا كنت على مقربة منه نظرة كنت أخاف منها ، مع ثقتى بأنه يحبنى لأننى آنست وحشة بيته ، لكن عينيه كانتا دائما حمراوين فيهما عصبية ونفاذ صبر .. لذلك كنت لا آلفه .

وكان يحب عمتى ويأتمر بأمرها ، ولا يطيق غضبها ، كانت سحرا بالنسبة إليه .. وكنت ألاحظ — حتى فى الأوقات التى كان يبدو فيها فى قمة غضبه — أن ثورته تخمد تماما إذا بدأت ثورة عمتى فى الهبوب .. ريح أقوى من ريح .

وقبلنى الرجل ذات مساء وأعلن أننى « وجه سعد » بالنسبة إلى السوق . لقد تحسنت أحواله حدا وقد وقع اليوم عقد شراء وأصبح هذا البيت « ودق برجله على أرض الغرفة » ملكا له ، ومن أول الشهر سيحصل الإيجار من السكان .

وأحسست بفرح غامض كأننى اطمأننت على مصيرى ، وتذكرت فى الحال فوزية بنت عمر أفندى المدرس وأننى سأدخل السلاملك عندهم فاخذ منهم الأجرة وأعطيهم الوصل وأننى سأكبر فى نظر فوزية ويزداد حبها لى .. خيالات صبيانية .

ولم يكن أبى يقول لى شيئا عن إخوتى الذين هاجروا إلى قرية بعيدة ولكننى تعرضت فى يومين متتاليين لشيئين هزا قلبى وقلقلانى بعنف . أولهما أننى رأيت أبى وهو يسلم على زوج عمتى فلم يعجبنى سلامه ، كان أبى فى جلبابه الصوفى البنى لا يتغير منحنيا بقامته القصيرة أمام صهره الطويل . فكان

« ذل »، شبه راكع أمام « عز » منتصب القامة عليه معطف أسود غالى الثمن وفى يده عصا وسبحة ويفوح من أعطافه مختلف العطور .

وتذكرت أن أخت هذا الرجل الراكع تصرخ أحيانا فى وجه هذا الواقف فى اعتزاز فينكمش فى ذل .

وفسرت الأمر بأنه « الحاجة المرة » .

أما الشيء الثانى الذى تأثرت له فهو أن عمتى أخبرتنى بعد سفر والدى أن أختى الطفلة الصغيرة قد ماتت وأنه لم يبق مع أمى إلا الولدان . فسرحت كأنى أسمع بكاءها فى الظلام ، هناك فى القرية بعد أن تخطت الأم أجسام أولادها النائمين وخرجت .

لكننى حين رأيت على شفة عمتى بقايا اشمئزاز لم أفطن إلى أوله ، فهمت ما كانت تقصد أن تقول : كانت تريد أن تقول أن هذه البنيَّة لو كبرت لورثت أمها وهى تحمد الله على أن المنية عجلت بها ، فبكيت لمن ؟ لست أدرى ..

كنت فى بعض الأحيان أحس بشبه تذمر يغمر عمتى لأنها تؤوينى بالطبع فى بيت رجل غريب عنا ، وبقوة سلطانها وخلو البيت من الأولاد كنت أعلم أننى أقيم عندهم ، لكن هذا شذوذ من القاعدة فلا عجب إذا كانت عمتى تتذمر أحيانا .

والنجاح يحفز على مواصلة السير ، وانتقالى مرحلة بعد مرحلة بتفوق وتوفيق جعل أبى يأمل فى أن يرى النور وعمتى تصبر على تربية هذا « الدمل » يعنى أنا ، كما كان لى بالتالى أمل عذب فى أن أكسب وأن أحب وأن أتزوج ..

وكانت « فوزية » تلون حياتى — على الرغم من بخلها — بألوان زاهية ، وتسدل على مخدع المستقبل ستائر من المخمل .

وأحسست بحنين نحو أخوى . فجاء بهما أبى إلى القاهرة مرة فرأى بعضنا

بعضا ثم عادا إلى المنفى .

كان بيني وبينهم اختلاف شديد ، كنت أحس الفرق ضخما بين طريقة كلامي وأكلي وشربي ومشيتي وطرائقهم هم . واختلاف المذاهب يخلق نوعا من الغربة تمنيت يومئذ أن لم يكن خالط قلبي .

وسمعت سيرة أمي طوال هذه الزيارة .. لكن البعد يخلق السلوان خصوصا في هذه السن التي نكون فيها في ليونة طينة الصلصال .

وتغير شكلي وقوامي بفعل السنين .. طال عودي وامتد في نحافة وعدم تناسق حتى كنت أنظر إلى أبي وعمتي وفوزية من العلياء وألقي شيئا من السخرية ، وبتقدم السنين كذلك أصبحت طالبا في السنة الثالثة بمدرسة الصناعات ، وأصبحت أحلام المستقبل على وشك أن تلبس جلابيب الحقائق .. وكنت مصمما بيني وبين نفسي على أن أعيد النظر بقوة في المأساة التي لحقت ببيت أبي ..

لكن ..

من المحال أن يخلو الطريق من العثرات ..

وقد كانت العثرة في هذه المرة مكتوبة على خطواتي .

دخلنا الامتحان التحريري للشهادة التي تسمى « دبلوم الصناعات » وأنا طالب مجتهد أتعلق بالتعليم كما يتعلق الغريق بطوق من الفلين .

وسارت الأمور على ما يرام حتى كان يوم من الأيام .. جعلنا نجيب عن الأسئلة والصمت مخيم على المكان و « مراقب اللجنة » واقف ينظر إلى الطلبة بعينين تشبهان عيني النسر ثم يتغاضى وينظر من الشباك .

وكنت في الركن الأقصى من المكان وإلى يساري طالب مهمل كان يغتنم فرصة انشغال « المراقب » ويهمس لي طالبا « كلمة » .

— كلمة لله يا عوض .. أنقذنى .. كلمة لله .. يخرب بيتك .

ويصر على أسنانه ويعض شفته وهو يكاد يبكى .

وألقمته كلمة فى غفلة من المراقب فانفتحت شهيته للغش .. ثم زجرته فلم ينزجر . كنت أشبه بالمرأة التى تستسلم لما يفعله رجل مجهول لأنها مكسوفة متورطة تؤثر الصمت .. وانتهز الطالب هذه الفرصة فاستبد بى .. وعلى حين غفلة وقعنا فى قبضة المراقب متلبسين بالغش فقد كنت أكتب له شيئا على النشافة .

جربت يومئذ موقف الذين يساقون إلى الموت فتبدو لهم أشباح الناس والكائنات وكأنها منفصلة عنهم لا تربطهم بها علاقة . والخدر الذى يلحق الإحساس فيشل اللذة والألم على السواء .

وخرجت مطرودا محروما ، دورى فى العام المقبل إذا عشنا ، وعلى عمتى وزوج عمتى وبيت عمتى أن يؤوينى عاما آخر .. يا سلام ! .

ورأيت النيل يناغينى فأقبلت عليه وخيل إلى أنه يفتح لى ذراعيه ، ثم استكبرت أن أموت كافرا ولعلى خفت من الموت فالتمست للحياة عذرا .

وسرت أضرب فى الشوارع لا أدرى إلى أين أذهب .. وأحسست بالجوع — وذلك غريب فاشتريت شطيرة وسرت آكل منها وتبعنى كلب ضال فألقيت إليه بلقمة ، ثم تبعنى وكأن فى عينيه دعاء ، فألقيت إليه بالباقى ثم سرت أتلمظ .

قلت بينى وبين نفسى وكأننى صرت أحد الشعراء : « الكلاب الضالة على الأرض أنواعها كثيرة » .

عرفت أننى بعيد جدا عن البيت حين أفقت من ذهولى على صدمة فى عمود النور .. وصلصل رأسى بالصدمة وكأنه كرة من النحاس ..

فقررت — وكأنما كان هذا بسبب الصدمة — أن أسير نحو البيت وليكن ما يكون .

وابتسمت لى فوزية عند مدخل السلاملك فلم ألتفت إليها .. أشياء كثيرة فى الدنيا تأتى فى غير أوقاتها .

وصعدت السلم وقلبى يدق ، ورأيت باب الشقة مفتوحا فدخلت .

وكأنما كانت عمتى مستيقظة من النوم فورا . لأن وخما شديدا كان على ملامحها . كانت فى الصالة تلقى على الخادمة أمرا ساعة رأتنى . عليها قميص حرير أبيض يمسك جسمها ينجر على كعبيها ، ويكشف عن صدرها وعضديها كأنها لم تكن تتوقع أن ترى أحدا .

وحملقت مذهولة بعد أن فحصت وجهى ، ثم أمسكت برسغى كأنها تجس نبضى ، وقادتنى إلى حجرة وجلست وتركتنى واقفا ثم سألتنى :

— مع من تشاجرت أيها المجنون ؟

فأجبت وعينى إلى الأرض :

— لم أتشاجر مع أحد .

فقالت بحدة :

— إذن فهل ضربت نفسك بنفسك .. هذه أشياء تدعو إلى الموت وتقصر الأجل .. ما هذا ؟

ووقفت أمامى ورفعت ذراعها العارية الملفوفة حتى لمست جبينى .. كان هناك ورم فى حجم اللوزة على هيئة نجم فى جبهتى عندما صدمنى العمود ، لكننى لم أشعر به ، ثم استطردت عمتى :

— ولماذا عدت باكرا هكذا ؟

فهزنى السؤال حتى كدت أسقط على الأرض . ولم أرسل إليها بصرى بعد

أن عادت إلى جلستها ووضعت ساقا على ساق ، وجاء صوت من الحارة ينادى على الملوخية فى الوقت الذى نفد فيه صبرها وصرخت بأعلى صوتها تطلب الجواب ، فقلت باختصار :

— طردت ..

— طردت ؟ .. طردت ؟ ..طردت .. لماذا ؟

هل كنت تقول الحقيقة لو أنك مكانى ؟ ما جدوى تصريحنا بالحقائق إذا لم تكن نافعة ولا قادرة على تغيير موقفنا خصوصا عند الذين نكون فى حاجة إليهم .

فلم أرد . فأجابت هى :

— غشاش ؟

فلم أرد . فصرخت :

— تلعب طول العام وتغش فى آخره .. هل كنت تغش ؟

فأومأت برأسى :

— نعم .

وقالت كلاما كثيرا وهى تلف فى الحجرة وتهز أردافها ، وقبضتاهـا متكورتان ، لكن دموعى كانت كثيرة ، وعيناى اللتان عميتا من الدموع كانتا متجهتين إلى حذائى الضيق الذى أرتديه والذى خلعه على زوج عمتى التاجر .

ثم جلست وهى تلهث ، ثم وجهت إلى سؤالا غريبا :

— ولد . هل تعرف ابن من أنت ؟

قلت بانكسار :

— نعم .



ـــ ولد .. هل تعرف ابن من أنت ؟

— هيه .. ابن من ؟ قل .

— إنك تعرفين أبى .. إنه .. أخوك .

فخبطت بكفيها عى فخذيها كأنما خاب ظنها فى الجواب ، ثم قامت إلى الحجرة لتلفها من جديد ، ثم عادت تقول :

— أنا لم أسألك من أبيك .. هل تعرف ابن من أنت ؟ الغش وراثة .. يا غشاشْ .

وانسحبت فى صمت أمشى فى حذائى الضيق إلى الحجرة التى تؤوينى .. ثم بكيت أمام أبى عندما جاء وعلم بالموضوع ، وقد كان على غير ما توقعت .. كان واثقا فى كل ما نقلته إليه ، وسارت قضيتى على قدمين لا بأس بهما لأنها فى هذه المرة كانت فى ساحة إنسان حاجتى طبيعية إلى المعونة التى يقدمها إلى .

ولست أنسى لزوج عمتى هذا الفضل . قالها كلمة واحدة حين علم بالمأساة :

— كل الدنيا غشاشة يا ابنى .. صبرك بالله .

وضحك بكل وجهه حتى بعينيه الحمراوين وهو واقف يسعل على حوض الغسيل من أعماق صدره . على أن العام قد انقضى والسلام .. وسافرت إلى أبى فجأة فى المحطة الصحراوية وهجمت عليه أقبل يده وأخبره أننى نجحت وانتهى الإشكال .

فرمى الرجل قلنسوته الصوفية على الأرض من شدة الفرحة ، وأخذ ينادى على زملائه بطريقة تدعو إلى الذعر حتى جاءوا فقالوا :

— حرام يا شيخ .. ظننا حريقا شب فى المكان .. لكن .. ألف مبروك .

وأطفأنا الحريق « بالشربات » والشاى ومشروبات أخرى .

وبدت لنا جزيرة خضراء فى خضمنا المالح .. وبات أبى يحلم .

أما أنا فقد انطفأت الفرحة فى قلبى بعد ما علم أبى بالخبر ، كأنما انتقل إليه كل شيء . وبكت عمتى وهى تودعنى . بكت بحرقة لأن الألفة تصنع العجائب . أما زوجها الساكت الغضوب ذو الوجه الأسمر الترابى فقد ودعنى بلطف وهو يقهقه :

ـــ صرت رجلا يا عوض وخلاص ستتركنا ؟ عليه العوض .

ثم تغير المكان ..

واستقررت فى أحد مصانع كفر الدوار . وألفت أسرة صغيرة .

سكنا حجرتين فى الحى الشعبى ، وانتقل معى أخواى الصغيران إلى المدينة ودخلا المدرسة هناك ، وأصبحت الحياة حلوة المذاق إلى درجة لا توصف ، خصوصا فى الليالى التى كان أبى يأتى إلينا فيها حاملا هدايا من الريف وحبا ونقودا .

ونلتف نحن الأربعة حول الطعام ونأكل ونثرثر .

وتذكرت فوزية ذات مساء . فى ليلة كانت خصيبة فى حياتى كنت أحس كأن فى قلبى شيئا نشيطا ، لست أعرف كيف أصفه .

كان ـــ مثلا ـــ أشبه بحوض صاف تجرى فيه سمكة مرحة .. وكأن حياة دافقة تنصب منه وتعود إليه ، وكان فى يدى مجلة وعينى على قصة حب ، والوالدان نائمان . وأبى جالس يفتل شاربه وإذا بى أسأله فجأة :

ـــ أبى .. ألا تريد أن تتزوج ؟

وخجلت من نفسى . وكأنما حدثت فرقعة غير منتظرة من إلقاء هذا السؤال . ففتح فى عينيه على حين وقفت أصبعاه على الشارب الذى يفتله . ثم ضحك ضحكة الذين يباهون بأنهم أذكياء وقال :

ـــ أى الاثنين تقصد ؟ أتريد أنت أن أتزوج ، أم تريد أن أرد أمك إلى عشرتى من جديد ؟

فارتبكت ، وساد صمت سمعنا خلاله أحد الولدين يستعيد وهو نائم بعض ما أخذه فى المدرسة وقت النهار ، فانبرى الرجل يعلق على الموضوع :

ـــ عوض . هل تسمع أخاك ؟ إنه يتكلم بما فى نفسه .. آه .. كأن الناس لا ينسون حتى وهم نائمون .

ـــ آسف يا أبى .. أنا آسف .

ـــ أبدا لا داعى للأسف . تزوج إذا شئت لكن . أليس من الممكن أن تعاوننى على تربية أحد أخويك ؟ واحد فقط . إن عمتك عاونتنى وهى فى بيت رجل أجنبى عنا . وكل ذلك من أجل الولدين .

وأطرق وسكت . ودخلت قطة تتلكأ وتتمسح فى الجدار كأنها تريد أن تسرق ، فنظر إليها وكأنما ذكر حركة زوجته . ثم قام فأطفأ المصباح بعد أن طردها . وفى الظلام ونحن مستلقيان بدأ يحكى كأنه لم يجرؤ على أن يفعل ذلك فى النور :

ـــ بعد أن مات أبوها تركها فى كفالة أبى . يعنى جدك . وكانت وسيمة مليحة لكنها عميقة لا يعرف سرها . وجهها جميل ونفسها مثل الخرابة . وكان أبى يقول لى دائما أنها زوجة المستقبل . وكان ذلك طبيعيا .. يتيمة فى بيت عمها ومعها شاب . فلماذا نربيها لغيرنا من الناس !

وكنت أحبها .. لا تتألم فهى غريبة عنا الآن . ولكنى ما كنت أعلم أنها تحب إنسانا غيرى . شابا لا يملك إلا ملابسه النظيفة . أوقاته مقسمة بين السطو واللصوصية والجرى وراء الصبايا .. وكان سعيد الحظ معهن مع أنه شرير . وكنا إذا خلا بنا المكان أنا وهى وبدأت أكلمها على استحياء كلام من

يحب ابنة عمه ، أعرضت عنى ، ونهرتنى مرة فلطمتها مرة دون أن أشعر لكن ذلك لم يوقف المقدر فتزوجتها فى ليلة شاتية .

وكان خضاب الحناء لا يزال على كفيها حين استيقظنا فى الليل على صراخ وصفير ، ثم علمنا أن أحد رجال القرية بات قتيلا بطلق نارى أثناء معركة واتهم فيها هذا الشاب المغرور . ورأيت كمدا على وجهها لكن فرحتى شغلتنى عن كمدها . وقبض عليه وزج فى السجن وغاب فى مظلماته سبع سنوات .

ثم تغيرت الدنيا فأصبحت أنا عاملا فى مصلحة السكة الحديد .. وأصبحت هى أما لأربعة . تملك دارا مستقلة قريبة من الحقول وزوجها أصبر من الجمل ووجهها حلو ونفسها فى مثل خراب المقابر .

« وخرج السجين من سجنه . وكنت غائبا عن قريتى تقريبا كما تذكر فإنك لم تكن طفلا .. حتى كانت ليلة .. شاتية موحلة سوداء » .

وسكت فلم يتكلم ولم أجرؤ على أن أستزيده من الحديث . كان شيئا شائكا ومن غير الممكن أن يسترسل فيه أكثر مما استرسل . غير أنى عدت إلى الماضى وحدى وبدون إرشاده لأننى أعرف الطريق . حتى خيل إلى أن أختى الطفلة ستستيقظ من النوم .. وسأضعها فى حجرى وهى تبكى فى ظل المصباح المعلق على الحائط ، وسأنام حتى تصطدم ذقنى بأعلى رأسها ، وأن أمى ستدخل وتخلع جلبابها الأسود فإذا ما سألتها أين كانت كورته وقذفتنى به فى وجهى فيسود الظلام من لفح الهواء وانطفاء النور ، ثم ترقد وهى تدمدم وتسب أناسا كانوا السبب . هيه لقد عرفتهم أخيرا .

ولم يتكلم أبى ، ولم يكن نائما . سمعته يفرقع أصابعه ويتنهد . وذكرت الليلة الهائلة التى جاء فيها فلم يجدها . وحمل القصب الذى كان يحمله . والماء

الساخن الذى وضع رجليه فيه . وجلسته المغلوبة ورأسه المحمول على كفيه وشعره الطويل وفمه ذو الرائحة المتغيرة ساعة انكفأ على ليوقظنى . والضرب والشتم وخروجها من البيت . وبكاء أبى أمام الحجرة بعد أن خربت الدار .

وانتظمت أنفاسه فى النوم وبقيت ساهرا أتخيل :

هناك فى الحقول كان يلقاها . ما أبشع ذلك .

ثم بذر فى نفسها الحقد والكراهية لرجل يرعاها .. هل هذا وضع طبيعى ؟ هل طبيعى أن تكون بقرة بين رجلين ؟ يطعمها واحد ويحلبها الثانى ؟ يأخذ الأول العناء ويأخذ الأخير اللذة ؟ هل هذا عدل ؟ !

حقيقة أن أبى رجل غير جميل . كان يدخل علينا فى أخريات الفترة التى يغيبها فى عمله أشعث أغبر كأنه راجع من الحرب .. لكن .. هل يكفى هذا عذرا لخيانة زوجته ؟ وإذا كفى فما ذنبنا — نحن أبناءها — حتى تخوننا ؟

أليس تخطيها لصفنا المتمدد على الحصير فى ظلمة الليل وخروجها إلى الحقول داخلا فى بند الخيانة ؟

ثم قلت أخيرا : إن أبى على حق .. يجب أن تظل هذه المرأة غريبة عنا . لكننى نمت وصورتها أمام بصرى فى الظلام منكفئة فى حزن ومذلة وثديها خارج من فتحة ثوبها وطفل يرضعه . ويخيل إلى أن هذا الطفل هو .. أنا ..

وانقضى عام واحد على هذه الذكريات . عام ليس غير .

كنا فى البيت جميعا فى آخر النهار وكان الوقت صيفا والحر يخنق الأنفاس ساعة طرقت الباب يد خمنت أنها يد صاحبة البيت التى جاءت تطلب شيئا أو تنقل خبرا .

وحين فتحت رأيت وجه امرأة لم أتبينه تماما و لم أعرفه لفورى ، فلما رأت صاحبته على وجهى دلائل عدم التعارف خنقتها الدموع . وعند ذلك

فقط . فطنت إلى أنها أمي .

كنت واقفا فى فتحة الباب سادا له تقريبا . أما هى فكانت على بسطة السلم فى ثوب ريفى أسود أجرب على صدره شريط من الحرير مرصع بالخرز وتحت هذا الشريط مباشرة كان « النبعان » اللذان وهبا لى الدر ووهبا لى الحياة . وأمامها حقيبة خشبية قديمة بنية ناصلة اللون مقفلة على حاجاتها . ومن إحدى زواياها أطل شيء أسود لعله طرف طرحة أو طرف ثوب .

أما وجهها فقد كان غريبا ، كل عضو منه بقى فى موضعه من غير شك ، لكن هيئته العامة كانت غير جميلة ، وعليها كثير من شمس الريف وكثيرا جدا من سوء التغذية وشظف العيش فأدركت أنها كانت تشتغل فى الحقول . وكفها حين صافحتنى بها كانت فى خشونة الليف . وفوق حاجبها تماما أثر « بطحة » وفوق شفتها العليا آثار شارب ، وعلى جسمها كله آثار ذل . وكان الولدان يلعبان فى الداخل أو يذاكران ، وأنا على الوضع الذى وصفته .. وأخيرا أفقت على قولها :

ـــ هل أدخل ؟

فوسعت لها الطريق فى صمت بحركة الآلة فانحنت على حقيبتها وحملتها ودخلت بها وهى منحنية قليلا ، وعندما رآها الغلامان صاحا فى فرح لا يخلو من المفاجأة : « أما ..أما .. » وتعلق كل بذراع ، أما هى فقد أخذت تبكى .

وتركتها مع الطفلين ولذت بالحجرة الأخرى وعلى رأسى شبه دقات المطارق وفى عينى دموع كثيرة .

ودخل المساء بليدا ثقيلا خاليا من المرح المعهود .. فخرجت أضرب على الطريق الرئيسى الذى يصلنا بالإسكندرية تحت ليلة حارة وسماء لا قمر فيها .



سألتها هل تعشت ؟ فأجابت بنعم ثم انخرطت فى البكاء

وكنت راكد الأفكار شأن الموحول الذى استنفد قواه كلها فلم يبق له إلا أن يسكت . وعندما عدت إلى البيت كان الولدان قد ناما . وكانت الأم ساهرة بالطبع . سألتها هل تعشت ؟ فأجابت بنعم ثم انخرطت فى البكاء .. سألتها بعينين دامعتين ولهجة من التأنيب :

— لماذا تبكين الآن ؟

— أوان البكاء لم يفت بعد .

فتنهدت ولم أرد . ثم قلت بعد برهة :

— أعرف ذلك .

— صحيح .

ثم قالت بعد سكتة :

— إن أباك يأتى إلى هنا ؟ .. طبعا .

ثم ألهمتها غريزة حب البقاء طريقة جديدة للدفاع عن نفسها ، فتعرضت للماضى بادئة من النقطة التى تجعل القلوب فى صفها هى فوصفت آلامها بعد أن تركت دار أبى .

لم يحتملها بيت خالها إلا ريثما مات خالها ، وبعد أن مات أحست بالغربة مرتين . كانت خادمة فى البيت وراعية فى الحقل ، وطاردتها اللعنة وصاحبها المرض . وأخيرا ضاق بها هؤلاء الذين كانت تخدمهم بلا أجر . وأغلظت لها إحدى نساء الدار القول ذات يوم وذكرتها بأشياء منها أن لها من بطنها رجلا يعيش فى بحبوحة فلا داعى لأن تشقى نفسها أو غيرها بطبيعة الحال .

وصممت على أن تخرج ولو أكلتها الذئاب . ورسمت خطة هى أن تعرج على ابنها أولا فى كفر الدوار فإن قبلها فى بيته انحلت المشكلة . وإلا فإنها تواصل سيرها إلى الإسكندرية حيث تنضم إلى الجالية التى هاجرت من قرية

خالها وأقامت هناك فى أكواخ « غيط العنب » ثم تزاول عملا ما من الأعمال التى تحتاج إلى أيدى النساء .

وقلت لها فجأة بعد أن فرغت من قصتها بصوت متأثر :

— أنت أمى على كل حال . هل يمكن أن تكونى غير ذلك ؟ .

قالت بنبرات مرتعشة وهى تنظر نحو حجرها وكأنها تخشى ألا أصدق :

— أنت .. ابن .. حلال .

على أن الإشكال الحقيقى كان قائما فى التقاء الزوجين القديمين عندى ، وإذا كان أبى قد اعتبرها امرأة غريبة عنه فإنه لم يكن من المستطاع أن أعتبرها امرأة غريبة عنى ، وإذا كان من العدل أن توقع العقوبة فليس من العدل أن توقع العقوبة مرتين ، فليعاقبها — إذن — أبى وحده . وقد عاقبها وانتهى الأمر .

قلت لأمى :

— هناك شىء مهم ، هو أنه يجب ألا تقابليه حتى أرسم لك خطة .

واتفقنا ..

وبقيت أنتظر ، ولكن أبى لم يحضر إلينا .

قلقت عليه ، وقلت فى نفسى : إن القلوب تخترق الحجب وتتطلع إلى ما قد ينتظرها فترات فى شبه ضباب . لماذا لم يحضر ؟

كان الأولاد فى الخارج وكنت أنا فى الحمام أغتسل بالماء البارد من شدة حرارة اليوم . وطرق الباب . وكانت أمى وحدها . وطبيعى أن تذهب فتفتح ، وكأنها نسيت النصيحة . ثم ماذا كانت تجديها النصيحة فى ذلك الوقت ؟

ووقف الزوجان وجها لوجه بعد مرور سبع سنوات . كان هو خارج

العتبة . وكانت هى من الداخل يفصل بينهما متر واحد . وحملق فيها بذعر وقال كلمة لم تخرج من فمه إلا بعسر :

— هنا .. أيضا .

ثم استدار وهبط السلم .. رجع من حيث أتى دون أن يلقى واحدا من أبنائه أو يلقى عليهم سلاما . وحملت هى من على السلم الهدايا التى كان يصحبها معه مؤملا أن يقضى تحت ظلها سهرة سعيدة . ودخلت دامعة العينين ..

وخرجت من الحمام فرأيتها تبكى ، علمت ملخص القصة فلم أستطع أن أتبين أين حكمى : هل ألوم أبى ؟ لا يستطيع أحد أن يجبره على شىء .

لكننى قلت لها :

— لا تبكى .

— أوان البكاء لم يفت بعد .

— لكن .. لا تبكى أيضا . ألم أقل لك أنه من غير الممكن أن تكونى امرأة غير أمى ؟ لا تبكى إذن .

ثم استأنفنا حياة أكثر هدوءا ، واخترت المعسكر الذى أنحاز إليه .

وبعد بضعة أيام تلقيت من أبى خطابا فحواه :

إنه يشكرنى .. ولو أنه تألم لكن .. كان يعرف أنها أمى .

كل ما يرجوه منى ألا أتم عليه فعلته لأنه لا يستطيع أن يتحمل فوق طاقته الشخصية ، على أن عملى وإن كان قاسيا بالنسبة إليه هو . فإنه يدل على أننى ابن حلال .

وقلت فى نفسى وفى عينى دموع : لقد اتفق الاثنان على هذا ، قالها أبى وقالتها أمى .

وأبلغني أبي أنه بات ليلته فى فندق وأنه ظل يبكى طول الليل .

هل يعتبر نفسه « خرج من المولد بلا حمص » ؟ هل يتزوج ويعاشر امرأة أخرى، وينجب أطفالا آخرين ؟ هو يظن أن الأوان قد فات ، وأن ولدا آوى أما لم تكن مخلصة لن يبخل فى المستقبل بالعطف على شيخوخة أب كان مخلصا مجتهدا .

وصف لى قهوة قريبة من الحى لألقاه بها أنا وإخوتى كل شهر مرة ..

وصار يأتى إلينا كل شهر يحمل الهدايا والحب والدموع والقبلات ، وكانت أمى تأكل من الهدايا فقط وكنت أنا وأخوتى نختص بالباق .

وبعد أن قابلته على القهوة أول مرة وتحدثنا فى الخطيئة وحللناها حتى وصلنا إلى نهايتها التى هى التوبة .. رأيت من أبى إصرارا على موقفه من أن التوبة شىء والمغفرة شىء آخر .

وعندئذ عرفت شيئا لن أنساه : « أن التوبة أرخص شىء يعطى ، وأن الغفران أعز شىء يمنح » .

الطالع السعيد

لم تكن الدار التى نسكنها واسعة جدا . ولم يكن عددنا قليلا ليصبح متناسبا مع الدار ، كنا ستة من الأولاد بين بنين وبنات يحترف أبونا مهنة غير الزراعة ولو أننا من سكان الريف .

كان تاجرا متنقلا يبيع الأقمشة على حمار . رجلا طيبا مسالما يركب دابته كل يوم قبل طلوع الشمس ليذهب إلى الأسواق فى القرى ثم يعود آخر النهار .

وكنت أنتظر عودته على الطريق كل يوم فأعرف حالة السوق التى كان فيها من منظر الأشياء التى يصطحبها معه : فإذا كانت الأمور على ما يرام رأيته متربعا على الحزمة الكبيرة من الأقمشة على ظهر حماره وأمامه « المتر » الخشبى وعلى يمينه ورقة ملفوفة أعرف فيها شريحة اللحم ، وعلى يساره قرطاس من فاكهة الموسم . وإذا كانت الأمور سيئة فى السوق لا نرى أمامه إلا (المتر) !!

وإذا كانت الأمور بين بين ، متوسطة الحال ، أراه يحتضن « كرنبة » ضخمة أو بضع أقق من « البطاطا » .

وعندما يطأ حماره عتبة الدار تخف إليه أمى مشمرة أذيال جلبابها الزاهى ذى الكرنيش الطويل فتأخذ ما بين يديه من طعام . ثم تعاونه معنا فى إنزال حمولة القماش . وبعد قليل نتجمع كلنا فى مكان واحد . هو منظرة فى آخر الدهليز . حيث تبدأ حياة الأسرة الحقيقية .. فينفض (الرجل) عن نفسه متاعب النهار بما يحكيه من حوادث ، وتشارك (المرأة) فى مسح هذه المتاعب بنظرة لينة أو كلمة طيبة أو لقمة هنية .

كنا نتجمع حول والِدَينا فى شبه حلقة حتى نتناول عشاءنا .. ثم تفرقنا المضاجع .

وفى الأيام التى يعود أبى فيها من السوق يحمل لحما ، كنت أعتبرها من ليالى العيد ، لأننى غالبا ما كنت أقضى فترة ما بعد الغروب فى الخارج أجرى مع الصبيان نطارد الضفادع أو نغير على أعشاب الطيور ، أفعل ذلك بأمر أمى ريثما ينضج اللحم على الكانون ، ثم أدخل فتملأ أنفى رائحة البصل المخروط فى السمن وهو يتنفس على النار أنفاسا تملأ الدار وجزءا من الحارة .

وحول صينية العشاء نجلس نحن الثمانية ليأخذ كل منا قطعة من الرزق الذى جرى من أجله طول النهار رجل على ظهر حماره .

*** *** ***

وصحبت أبى فى هذا اليوم إلى السوق لأننا فى أجازة الصيف والمدارس معطلة وحينما ركبت خلفه كان النعاس لا يزال فى رأسى ، كنت غير يقظ تماما ولو أن أمى غسلت لى وجهى بماء بات فى الأبريق حتى برده ندى الليل ، ولكن كلمة واحدة أيقظتنى من النوم ، أيقظتنى تماما . سمعت أمى تقولها بعد أن وضعتنى خلف أبى على الحمولة :

ـــ حظ أبيك من حظك .. أنت ذاهب معه إلى السوق .

وضحكت أمى . وتحرك الحمار وخطا العتبة وأمسك الطريق من أوله ومشى يئن . وألصقت جبهتى بظهر أبى ورحت فى شبه نومة لكننى كنت ـــ فى الواقع ـــ أخمن ما قد يحدث فى السوق .. هل سيعود وليس أمامه إلا متره الخشبى .. أو سيحمل ورقة كبيرة من اللحم .. أو يا ترى سيملأ حجرى بكمية من البطاطا ؟!

وعند عودتنا آخر النهار كانت أمي ممتلئة شوقا. ولما دخلنا فحصت بعينيها ما بين أيدينا من أشياء وابتسمت . كانت الأمور تدل على أنها سارت سيرا طيبا فقد كان معنا كرنب ولحم وخير كثير . وكانت ورقة اللحم ضخمة لم تذكر أمي أنها رأت مثلها منذ ثلاث سنوات .

ونزلت فى زهو كأننى أنا الذى صنعت كل شىء . وعاونتهم فى نقل الحمولة إلى الداخل وربطت الحمار بنفسى وطردت عن وجهه ذبابة من النوع الذى يولع بالحيوان ، ثم استأذنت وخرجت ألعب حتى يطهى الطعام .

وعند عودتى كان على الصينية كرنب محشى ولحم مسلوق وأشياء أخرى .. وكنت جائعا مجهدا وكان بقية الأطفال جياعا لأن أمى تأخرت فى طهو الطعام . وجلس أبى متربعا وظهره إلى الحائط يتمتم بختام الصلاة ، وتزاحمنا كما تتزاحم العصافير ، فإذا بأختى الأصغر منى تلكزنى بكوعها فى جنبى ، وأوجعتنى الضربة ، وبحركة آلية لا أكاد أجزم أننى كنت أقصدها ، رددتها إليها على وجهها وكانت بظهر يدى . فانغرست سنتها فى شفتها فسال منها الدم . والدم دائما يزعج الناس ، والأطفال على وجه الخصوص . فأخذت تبكى كأنها صدمتها عربة أو أصابتها رصاصة . وانقلبت التسبيحات فى فم أبى إلى حوقلة تدل على الأسف . وظل جامدا فى مكانه وظهره إلى الحائط ، فى الوقت الذى استدارت فيه أمى وأعطتنى صفعة على وجهى .

وحوقل أبى بصوت مرتفع جدا وضج الصغار بالضحك . وامتدت يد طفلة بنت ثلاث سنوات إلى الطعام من تلقاء نفسها فزاد الهرج والمرج ، وخيل إلى أنهم يسخرون منى وأننى أنا الرجل الأول على مائدة العشاء وأن هذه الخيرات كلها من ثمرات عرقى أو من طالع سعدى على الأقل . فتأخرت إلى الخلف مضربا عن العشاء ، وتمددت فى الركن بعيدا ووُجهى إلى الحائط

الداكن .

لا أذكر أننى فعلت هذا أكثر من أربع مرات فى صباى الأول ، لكن الذى غاظنى من أمى أنها سارعت باتهامى أن هذه هى خصالى . دائما دائما !! عادة يجب أن أؤدب عليها .. وعلق الصبيان خصوصا تلك التى كانت سبب المشكلة ، ثم جعلوا يضحكون .

ومنذ بدأت حركة المضغ بدأ الجوع يعضنى بأسنانه وامتلأت عيناى بالدموع ، فلم يكن ينقصنى سوى كلمة تثيرنى .

وأحسست لأول مرة أن صوت المضغ أقبح الأصوات فى الدنيا .. ولم يكن من المعقول أن أقوم بلا دعوة فأرجع إلى الصينية ، لذلك قررت وأنا أرقب خيال وجهى مرسوما على الحائط أن أقوم فأتعشى حتى ولو دعانى أصغر الأطفال .

وما لبث الفرج أن جاء فى صوت أبى :

ـــ عيب يا إبراهيم .. تعال كل !

ولم أقم فورا كما تقتضى الخطة .. تلكأت بضع ثوان فترت بعدها حميتى ووجدت أن الكرامة تحتم على ألا أسارع هكذا .. ثم فلسفت الموقف .. لماذا لا تكون الدعوة من أمى ؟! إنها التى عقدت العقدة فعليها إذن حلها .. فلأنتظر حتى تنادينى أمى بنفسها .

وجاء صوت من هناك يقول :

ـــ يا سلام .. آل عامل راجل !

وكان صوت أخى الذى يصغرنى فاشتد غيظى حتى كدت أقوم فأبطش به .. ما هذه الشماتة ؟ أليس هذا كله من خيرات طالع سعدى ؟ ربما لو لم أكن مع أبى لما باع ملابس العروسة فى هذا اليوم ولعاد إليهم بمتره الخشبى

ولا شيء سواه .

وخفت أن أرد عليه فيقال إنني أتمحك ، فتنهدت ثم أجهشت بالبكاء وعندئذ ضحك الأطفال :

— يا عينى !!

تمنيت بعدها أن ينطفىء المصباح أو أن تهجم عليهم قطة أو كلب .. أن يقع أى حادث ..

ونادتنى أمى وهى تمزج الحنان بالشتائم فعز على أن تدعونى بهذه الطريقة .. وكانت أصوات الملاعق فى الأطباق الخزفية تصدع رأسى ، وأخيرا صممت على ألا أرد عليها .. وقررت هى ألا تنادينى مرة أخرى .

وحين خفت الحركة وقام الأولاد ليغسلوا أيديهم جاءت أمى تهزنى وأحسست بأنفاسها تلمس وجهى وكانت رائحة الطبيخ تفوح من كفيها .. وكنت واثقا أنها احتفظت لى بنصيبى ، لكن عز على أن آكل آخر الناس وأتناول الفضلة فتناومت حتى اعتقدت أمى أننى نائم ، فمصمصت بشفتيها ولعنت الصغيرة التى كانت سببا فى الإشكال . فلم يكن هناك بد من أن ألوذ بالصمت حتى رحت فى النوم العميق .

وفى الصباح . كان كل شيء قد نسى . حتى معدتى نسيت جوعها ..

وأيقظتنى أمى بلطف شديد وصبت الماء البارد من الإبريق لأغسل وجهى فتكمل يقظتى فأركب مع أبى إلى السوق .

لم يكن على وجه أحد منهما اعتذار كأن الموضوع غير ذى بال . لكنها قدمت لى فطورا دسته فى جيب جلبابى كان على سبيل التعويض شقة من خبز القمح وبيضا وورقة فيها توابل لتفتح شهيتى .

ومشى الحمار بحمولة كل يوم : بالحزمة الكبيرة وعليها راكبان . أنا

وأبى . وكان أبى يقرأ دعاء موزونا فى صوت هامس جعلنى أندمج فيه بعد قليل كأننى دخلت فى الجنة . فأسندت جبهتى إلى ظهر أبى واحتضنته بذراعى ورحت فى شبه نوم .

كنت أحلم بحوادث البارحة . بمبيتى بلا عشاء . وبالخيرات التى كنت سببا فى عودتنا بها آخر اليوم . لقد باع أمس نحوا من عشرين جلبابا وأقمشة للتنجيد وغير ذلك حملها أهل العروس فى صرة كبيرة . وكان يومه رائعا لكن ليلتى أنا كانت على العكس ..

وأفقت من أحلامى فألفيت أبى لا يزال يهمس بدعائه . وكانت الحقول على الجانبين خالية من الزرع . ليس فيها إلا السماد . والشمس لم تخط بعد خطواتها الأولى . والندى يسقط من أغصان الشجر على رأسنا من حين إلى حين . وقطع أبى دعاءه وسألنى :

هل نمت ؟

— لا . لم أنم يا أبى .

وعاد كل منا إلى ما كان فيه من قبل . كان أبى يسأل الله أن يوسع له فى رزقه وكنت أنا مشغولا بما سنحمله من السوق آخر اليوم إن استجاب الله دعاءه . حتى انتهى الطريق .

ودخلنا إلى الساحة الكبيرة حيث سوق القرية،ورتب أبى بضاعته — وأنا فى مساعدته — وعلق المناديل الحريرية الزاهية اللون على واجهة المظلة التى تقينا من الشمس . وما ارتفع النهار أو كاد حتى أصبح المكان شبه خلية ، تفوح من أطرافه روائح الزيت المقدوح مختلطة برائحة التراب .

وشغلنى النجاح الذى لقيه أبى فى هذا اليوم أيضا عن أن أتناول فطورى الذى حملته معى .. كنت حريصا على أن أراقب البضاعة المنثورة حولنا حتى

لا يسرق منها شيء . وأعد وراءه الأمتار التي يقيسها حتى لا يخطىء . وأعيد شيئا إلى مكانه أو أناوله شيئا يطلبه . وبين هذا وذاك — في سرحة صغيرة من سرحات الذهن — أتصور سعادة أمي في المساء بعد يومنا الرابح وخيرنا الكثير وابتسامة السخرية القوية التي سأسددها إلى وجوه من سخروا مني ليلة البارحة .. لأنني غضبت على العشاء ..

⁂ ⁂ ⁂

ولم نستطع أن نتغدى ظهرا لأن حركة السوق لم تفتر .

وقال أبي لامرأة عجوز كانت تشتري جهازا لبنتها :

— يخيل إلى أن فتيات هذه القرية سيتزوجن جميعا خلال أسبوع .

فضحكت العجوز وقالت وهي تسدد إليه نظرة لئيمة :

— إن تجار الحناء يسرهم أن تكثر الأعراس .

وكان على وجه أبي ابتسامة مجهدة لكنها سعيدة . ولما مالت الشمس خفت الحركة فتناولنا غداءنا ، وأرسلني أبي فاشتريت أشياء لنعود بها إلى الدار .

⁂ ⁂ ⁂

لكن ليلتنا لم تكن سعيدة كما قد يخيل إليك ..

كانت عودتنا متأخرة أكثر من العادة وكان الأطفال ينتظرون بوجوه أثقلها الملل وعيون أثقلها النوم . ولما رأوا في وجوهنا ما يسوء ، ودقت أمي صدرها عند سماع الخبر ، انزووا في ركن ينصتون ..

ولم يقدر للحم أن ينضج ولا للنار أن توقد في هذا المساء ، فأوى أكثر الأطفال إلى مضاجعهم في صمت .

أما أنا فإني لم أكن غاضبا ولكنني كنت ممدودا ووجهي إلى الحائط أنظر

إلى ظله وأستعيد حوادث النهار وأنصت إلى الحديث الفاتر الذى يتسقطه والدى وإلى أنفاس النائمين الذين سهروا ليلة البارحة يضحكون منى فى شماتة . وقلت فى نفسى

— ها نحن أولاء جميعا نقضى أمسية غير سعيدة .. من كان يظن أن أمور هذا اليوم الرابح تنتهى هذه النهاية !! وجاءنى صوت أبى وهو يقول لأمى :

— نستطيع أن نفرض أى فرض يريحنا .. إن الحاج عبد الرحيم نشلت كل نقوده وهو ذاهب إلى الإسكندرية ليشترى بضاعة .. ولم يمت ولم يجع أبناؤه .. رزقه الله .. ومسألتنا إذا قيست بهذه مسألة سهلة .

فقالت أمى :

— صحيح صحيح .. لكن ماذا كان يعمل طويل اللسان هذا معك طول اليوم ؟!

قلت فى نفسى : إن الريح ستهب فى اتجاهى . سيقع الذنب على . وخفق قلبى . وعادت أمى تقول لكن بحنان شديد :

— لا تنس أنك كنت تشتغل طول النهار فلا بد أن تتعشى .

وتنهد أبى . وساد الصمت لأن أمى قامت تجهز له عشاء . وشممت رائحة بيض مقلى وتوابل ونعناع . وفطنت أمى إلى أننى لم آكل فنادتنى .. فلم أرد .

وعادت ذكريات ليلة البارحة لكن .. كان هناك أطفال غيرى ينامون محزونين . وأعادت أمى النداء وهزتنى فتناومت ، فانصرفت إلى أبى الذى طلب منها أن تناوله القلة .

وأخذ النوم يداعب أجفانى وأنا أستمع إلى صوت المضغ ، وأستعيد حوادث النصف الثانى من اليوم الرابح :

عودتى مع التجار من السوق آخر النهار وتركى أبى وحده ، ثم رجوعى

إلى أبى مرة ثانية ، ثم عودتنا معا . ثم منظر أمى وهى واقفة فى فتحة الباب متلهفة على معرفة الخبر . فلما رأت الحمار يخطو داخلا العتبة عرفت كل شىء فدقت صدرها .. كان الحمار أسود كأنه قطعة من الليل ، وجاء صوتها :

ـــ إن حمارنا أبيض .. ماذا جرى ؟!

وأجابها صوت غليظ :

ـــ سرق فى السوق ..و ..

وأخذ النوم يثقل على ، وتصورت مخاوفى وأنا عائد وحيدا إلى أبى بحمار عم عثمان لكى نحمل عليه البضاعة التى فقدنا عائلها ، « ثم أخذت أحس كأننى أعد الأمتار وأبى يقيس ، والنقود وأبى يحسب .. ووجدت الحياة ربحا غير خالص أو خسارة على طول الخط » .

وكأننى عدت من جديد أعد مع أبى الأمتار التى يقيسها .. واحد ، اثنين .. ثلاثة ..

ولم أستيقظ إلا صباحا ، وكان أبى قد رحل ليشترى دابة جديدة ..

أربعة أجنحة

لم يكن يستطيع أن يفرق بين هاتين المرأتين .. كانتا كأنهما توأمتان .. بل من الممكن أن يقال إنهما صبتا فى قالب واحد .. خصوصا إذا تفرست فى وجهيهما ورأيت العقدة السحرية التى تناوش القلب على قصبة الأنف بالقرب من نهايته .

وهاتان المرأتان ، هما أمه وخالته .

كانتا حبيبتين إلى أقصى حدود الحب . لعل السر فى ذلك راجع إلى أن والديهما كانا يحسنان رعاية العلاقات بين الأبناء . أو لعل سببا آخر قد وهبهما هذه الغلاقة ، وهو أنهما كانتا وحيدتين فلا أخوة ولا أخوات .

كان أبوهما يقول لهما كلما عاد من الحقل ، وعلى وجهه الطيب ابتسامة السعداء :

ــ إننى أملك اثنين مثلكما فى الحقل يا بنياتى .. اثنتان تحنوان على مثلكما .

فإذا ما تساءلت الكبرى أو الصغرى عن هذا اللغز عند سماعه أول مرة ، تحولت ابتسامة السعداء على فم الأب إلى ضحكة فوارة . وأخبرهما أنه يقصد شجرتين من التوت لهما ظل وارف . ينال تحتهما الراحة ويشرب الماء ، أو يتناول الغداء ثم يتمدد ساعة الظهيرة .

والحب شيء يورث . نأخذه عن آبائنا مثل الدين والعقار المنقول .. وكان يسمع اسم خالته يتردد كثيرا على لسان أمه .. وملابسها فى القرية كانت من المدينة ، تبعث بها أختها مخيطة أو غير مخيطة ، وكثيرا ما رأى أمه تباهى جارتها

بالألوان التى تأتيها من الإسكندرية .. ورأى خالته تأتى لزيارتهم فى الحين بعد الحين ، وسمع نجوى الأختين عن الماضى أيام كانتا تحت جناح الأبوين ، قبل أن يفرق الزواج حبات العقد ، وتشتت الأيام شمل الأسرة الصغيرة .

كان ذلك وهو صبى فى حدود الثانية عشرة من عمره ، يخفق قلبه للجمال فى إطار الطبيعة ، والأم ، والألوان الزاهية . وتخالطه الفرحة فى ليالى العيد ليلة يبيت يحلم بالمصروف والمراجيح والرحلة إلى البندر .. أما فيما عدا ذلك فقد كان ريفيا ، يأمل أبوه أن يكبر حتى يساعده فى إدارة وابور الطحين الذى يدر أرباحا كثيرة .

وبعد أن يخرج هذا الغلام من المدرسة كل يوم ، يذهب إلى الوابور ليتسلى برؤية الزحام وميزان الحبوب والاختلاف على الموزون ، وبائعة الترمس التى تجلس عند مدخل المطحن ، والطحان البدين ذى الوجه القبيح ، والصوت المحبوس ، وهو يناوش النسوة ، وكان يشعر أنه يطوف بمملكة أبيه ، وأن سنين غير طويلة تفصله عن شيئين هامين سمع والديه يهمسان بهما أكثر من مرة ، هما : إدارة المطحن .. ثم .. الزواج .

تمنى بينه وبين نفسه أن يسمع أحدهما ذات مرة يعلن اسم البنية التى ستكون عروسا له بعد أن يكبر .. لماذا لا تقول له أمه مثلا : أنا سنزوجك سعاد بنت خالتك .. إن أمه تحب أختها وهو أيضا يحب سعاد ..

ومنذ الصيف قبل الماضى وعيناه لم تقعا عليها ، لفتها لينة ، وثوبها قصير لا يكاد يغطى الركبة ، جعل عيون القرويين تحملق عند نهايته كأنهم يحاولون أن يعروها بأنظارهم .. كانت آنذاك بنت ثمانى سنوات ، إنه يكبرها بعامين . وقد أخذته الغيرة عليها حين نظر أحد الفلاحين إلى فخذها وهى تلعب بالحبل ، وأمسك نفسه أن يتشاجر . ثم قاد بنت خالته من معصمها حيث لعبا

معا بعيدا عن الطريق العام ، ويذكر أنه لم ينم بعد سفرها عدة ليال ، وأنه كان يحملق فى وجه النهار كأنه يسأله عن خبرها .

نعم ، عندما يكبر سيدير المطحن ، ليس فى هذا إشكال . لكن الإشكال الحقيقى كائن فى الفتاة التى سيتزوجها بعدما يكبر ..

كل البنات اللائى يذهبن معه إلى المدرسة لا يتسامين إلى جمالها ، ولا الشال الملون الذى تتغطى به فى الشتاء ، ولا طريقة الكلام ولا اللعب بالحبل .. وكل شيء فى سعاد بمقدار كأنه مقيس مفصل مثل ثوبها وحزامها وغدائر شعرها المجدولة فى ضفيرة واحدة تنتهى غالبا بشريط من الحرير يشاكل لون الفستان .

كان الناس يتحدثون بأسف شديد عما تعانيه المدينة الكبيرة فى هذا الصيف . كانت الحرب الثانية فى ذلك الوقت أشبه بحريق مختلط المعالم .. وقنابل مختلفة الجنسية تتساقط على المدينة المصرية ، مدينة الإسكندرية ، ليلا ونهارا ، من أجل قضية ليس لنا فيها رأى ، وبين عشية وضحاها امتلأت قرى الوجه البحرى بالمهاجرين من النساء والأطفال وغير القادرين على العمل .

ورأى الصبى وجوها لم يكن يراها واستمع إلى الأهوال التى حملها المهاجرون على ألسنتهم وعلى وجوههم وملامح أطفالهم . ثم سمع دعوات أمه وابتهالها إلى الله من أجل أختها .. فتوقع أن يراها فى القرية .

وعبثا حاولت الأخت أن تعلم عن أختها فى المدينة خبرا ، فلم يعودوا يترقبون إلا النبأ الفاجع أو الصمت السلبى الذى يستحيل مع مرور الزمن إلى ما يسمى « فقدا » ، وهو من أشد أنواع « الموت » هولا لأنه لا يرمز له بقبر .

وسهر الغلام فى فراشه عدة ليال يستعيد خياله — فى ذعر وحمى — قصة الجسم الذى ظل ماشيا بعد أن خطفت الشظية رأسه ، والأم التى حملت

وسادة السرير وهربت إلى المخبأ متوهمة أنها حملت طفلها . وفى سكون الليل يزقزق طير قلق أو يصرصر أحد الجنادب ، أو يخور ثور فى حظيرة ، فيذكر الغلام أنه فى الريف . لكنه كان يسائل نفسه فى قلق وحنين يناسب هذا العمر .. ترى ماذا جرى لسعاد ؟!

وفى أحلك ساعات اليأس قد ينفتح باب الرجاء .. ولم يصدق الصبى عينيه حين رأى خالته وزوجها وبنتهما سعاد وأولادهما الآخرين .

وجوههم قد فقدت بشاشتها ، حتى سعاد كانت أشبه بوردة نصف أوراقها قد تساقط ، فى صحبتهم متاع خفيف وهم ثقيل . ولم يكن فى خاطرهم شيء إلا أن يتساءلوا :

ـــ من أجل ماذا نتحمل هذا العذاب ؟!

وعاد الزوج إلى الإسكندرية بعد أن ترك أسرته فى الريف .. واشترطت عليه زوجته ألا يبيت فى المدينة بعد انتهاء عمله فى المستشفى كموظف ، بل يبيت فى إحدى الضواحى كما تفعل غالبية الموظفين ، ثم يعود إلى عمله فى الصباح .. وأوصته أن يكتب لهم يوما بعد يوم حتى يطمئنوا عليه .

وإذا كان الغلام قد نقم على الحرب قنابلها وأهوالها ، فإنه قد حمد لها أنها أجبرت سعاد على أن تقيم فى بيتهم مدة غير قصيرة . ففى الدار الواسعة ذات الحجرات المصفوفة على هيئة طابور ، نزلت الأسرة فى حجرتين متجاورتين ، إحداهما لزوج الخالة عندما تتيح له فرصة الحضور ، والأخرى لبقية أفراد أسرته .

وفى هذه الدار وهذا الصيف ولدت قصة حب لإنسانين لا يزالان عند « التحويلة » التى تفصلنا عن نزعات الطفولة وعن أفكار الملائكة ، وإن لم نكن قد قطعنا بقية الطريق حتى نصير بشرا من الطين ..

يلعبان بالحبل ولكن خلسة ، ويجريان وراء الكرة ولكن فى ساحة الدار . وحملها مرة بين ذراعيه لتستطيع يداها أن تتناولا منديلها المغسولة من فوق حبل عال . وفوق سطح الدار بعثر اللعب وهواء العصر شعرها الناعم فانزويا فى ركن حيث أخذ يعيد لها فرقة وتصفيفه . وكانت معتمدة برأسها على كتفه وعيناها اللتان تكمن فى أعماقهما البعيدة أمارات الأنوثة ، تنظران إلى وجهه فى سكون ، وأنفاسهما منتظمة من فرط الطمأنينة ، يتنفسان كالقط النائم ..

وفجأة أحس أن هذا الكائن يمكن امتلاكه . كائن ابن عشر سنوات .. يمكن أن يربطه إليه .. أن يشده إلى نفسه فيصبحا شيئين متصلين أو شيئا واحدا . لكن ما هى الطريقة ؟

ومال نحوها يريد أن يقبلها ، فجفلت وجرت حيث نزلت إلى الطبقة السفلى من الدار ..

ولم يرها الغلام إلا فى ضحا اليوم التالى . كان كلاهما قد نسى من الأمس كل ما يسىء ، ولم يعد يذكر إلا كل ما يشرح ، وهذه هى الخطا التى تمشى بها العلاقات عندما ينسج الحب خيوطها .

قال لها باسما ، وعلى محياه دليل الحماسة :

هل عرفت ذلك الطائر ؟

— أى طائر ؟

— الذى كان يغنى صباح أمس .

— الذى يقول : « وحدوا ربكم .. وحدوا ربكم ؟ » .

— لا .. لم أعرفه بعد .. ألم تعدنى أن تخبرنى باسمه .. ؟

فأجاب فى زهو المنتصرين :

— إنه اليمامة ..

وضحك الغلام وضحكت الصبية فى الدار الساكنة فى الريف الهادىء ، على الرغم مما كان يلقاه الكبار فى المدينة المظلومة .

ولم تمض ساعات حتى عاد الغلام يفتش عنها ، كان وجهه محتقنا يعرف من رآه أنه سار فى الشمس مسافة طويلة .. وبين كتفيه من الخلف عرق يبلل جلبابه .. لكن ابتسامة السعادة كانت تخالط بقايا تعبه .

دخل الدار يتلصص حريصا على ألا يراه سواها .. كان يريدها وحدها ويحب أن يلقاها وجها لوجه .. وكان مخبئا شيئا ما فى « عبه » .

ودلف إلى الحجرة الأخيرة حين رأى أمه وخالته تجلسان فى حجرة المدخل ، وهناك ألفاها نائمة .

وقف الغلام مشدوها كأنما نسى نفسه ، أو فقد ذاكرته بشكل مفاجىء . خيل إليه أن النائمة ليست (سعاد) . كانت تبدو أكثر طولا وأكبر سنا وأشد أنوثة كأنها فتاة وهو غلام .. ذراعها مثنية إلى جنبها ، ورأسها معتدل على الوسادة وكان على ثغرها بسمة ، وساقاها عاريتان حتى ما بعد الركبتين ، وجو المكان .. كأنما يرفرف فيه حلم جميل ..

وحاول أن يرجع من حيث أتى وأن يقفل عليها الباب من جديد ، لكنه أذعن للفكرة التى ملكته حين أحس كأنها تهم أن تستيقظ .

وتقدم إليها . وأخرج الوديعة التى وضعها فى « عبه » وركع إلى جوار السرير بجانب وسادتها .. وأخذ يهمس فى أذنها بصوت عذب بسيط برىء :

ـــ سعاد .. سعاد .. قومى.. أحضرتها لك .. ها هى ذى . وحدوا ربكم .. وحدوا ربكم ..

ثم وضع منقار اليمامة بين شفتى النائمة .. فاستيقظت من النوم ..

قال لها وهى تفرك عينيها بعد أن نهضت جالسة فى الفراش :

ـــ لا تدرين أى عناء لقيته فى سبيل صيدها . كنا خمسة .. خمسة أولاد ، لم تسعفنا (النبلة) فتسلقنا الشجرة وأمسكنا بالعش ..

كان كأنه يقدم لها تاجا .

وأخذا يقبلان اليمامة ، وهما يجريان فى حذر فى آخر الدار ثم .. أعطته سعاد فمها فقبلها . و لم يكونا يدريان ما طعم ذلك !

على أن الأختين قد انتبهتا فيما بعد إلى أن اللعب بينهما قد جاوز حده فوضعاهما تحت عين المراقبة ..

و لم يكف القدر عن هنائهما بعد ذلك فأخذ يقص من أطرافه قطعة بعد قطعة . حضر زوج الخالة ذات مساء وأعلن فى تذمر رجالى متجبر قادر أنه لم يعد مستطيعا المعيشة هناك . إن الأمور قد هدأت نوعا . وكثير من السيدات سافرن مع أزواجهن .

ثم سأل فى غضب :

ـــ هبوا أننى مت وحدى وبقيتم أحياء ؟ فهل تعتقدون أنه ليس فى الأمر إشكال .؟!

وكان السؤال محرجا أسيفا جعل كلا من الحاضرين يؤمنون على وجهة نظر الزوج ؛ فقررت الأسرة السفر صباح اليوم التالى ..

وحين كانت الأسرة مشغولة بإعداد أمتعة المسافرين ، كان الصبيان منزويين بغير تدبير فى أحد أركان الدار يريدان أن يقولا كلمة وداع تناسب ما يخالط القلوب الصغيرة .. قال الغلام :

ـــ سعاد .. سأقول لأمى .. عندما أكبر ستجعلنا نتزوج ..

ونظر إليها وكان على وشك أن يبكى ، أو أن يمد إليها يدا ، لكن صوت الخالة كان قد ارتفع يسأل : أين سعاد ؟ ألم يرها أحد يا أولاد ؟!



ـــ سعاد .. سأقول لأمي .. عندما أكبر ستجعلنا نتزوج ..

ولم تلبث الأسرة أن رحلت إلى الإسكندرية .

منذ ذلك التاريخ والغلام مهتم بأخبار الغارات .

إن سأل عنها أباه قال له : « مالك ناعى هم الدنيا ، ربنا ينصر هتلر عليهم » .

وإن سأل عنها أمه دعت لأختها بالسلامة ونهرته قائلة « فال الله ولا فالك » .

وإن سأل عنها الطحان السمين ذا الوجه الملطخ بالشحم واللحم والدقيق ، سخر منه وخار كما يخور الثور قائلا : « اسألني عن حالي .. يخرب بيت الاتنين » .

واليوم قد جاءهم خطاب يطمئنهم عن الأحوال : والغارات هدأت نسبيا ولو أن سكان المدينة يقضون معظم الليل فى المخابىء : « والله معنا ، نحن لا ناقة لنا فيها ولا جمل » . كما قال زوج الخالة .

غير أنهم تبينوا أن الخطاب قد كتب من عشرة أيام .. تعثر فى البريد وفى الجو المكهرب .. عشرة أيام !؟ إنه فى ساعات فقط يحيق الخطر بالناس هناك !

وكان الليل قد دخل فخرج والد الغلام لبعض شأنه ، وجلس هو مع أمه وفى قلبه هزة من ذكرى سعاد .. قال لها :

ـــ عندما أكبر يا أمه .. طبعا سأتزوج ..

فردت قائلة وهى تخفى ضحكتها :

ـــ طبعا ..

ـــ ممن ؟

ـــ من التى سيكون لك نصيب فيها .

ونظر فى وجهها فلم يجد ما يشجع على استمرار الحديث ، فقام إلى القفص الصغير الذى اشتراه خاصة لزوج من اليمام صاده اقتناه من أجل سعاد حتى تعود .. حتى إذا ما اشتدت الغارات وجاءت إلى القرية كان أنيسها هنا ، وعند رجوعها إلى المدينة تأخذه معها ، ليقول لها هناك كل صباح : وحدوا ربكم .. وحدوا ربكم .. وسمع محرك سيارة .. وخفت الأم تستطلع الخبر ، وخالطت الفرحة نبرتها حين رأت أختها تنزل ، وأحس الغلام بما حدث فهبط السلم وثبا وقلبه يكاد يثب أمامه .

وعندما دخل المسافرون إلى النور ، وبدت على وجوههم أشياء غريبة .. إنهم غير كاملى العدد .. تنقصهم واحدة ..

وحين سألت الخالة :

— وأين سعاد ؟

وبكى الأب وبكت الأم .

فقدوها فى إحدى الليالى وهم فى الطريق إلى المخبأ ..

أما الغلام فإنه لم يبك .

كان فى ذهنه صورة ضخمة عن أهوال الحرب . صورة الجسم الذى ظل ماشيا بعدأن خطفت الشظية رأسه .. وتخيل أنه لسعاد .. قصد إلى السطح وظل يصرخ وكفاه موضوعتان على عينيه . وكان القمر مريقا نوره على سطوح الدور .. على الحطب الأبيض والمبانى السمراء .. وكان أيضا يضىء الجو لقنابل مختلفة الجنسية تتساقط فى نوره البنفسجى على السكان الآمنين .

واندفع الغلام نحو القفص حيث كان زوج اليمام راقدا فى أسره اليائس .

وفتح بابه وصرخ فيه :

— طيروا .. طيروا .. وحدوا ربكم .. وحدوا ربكم ..

فرفرفت تحت الأشعة البنفسجية وسماء الصيف أربعة أجنحة .

الوشام

كانت المدرسة بعيدة عن القرية بما يقرب من ثلاثة كيلومترات.و لم يكن فى قريتنا تلاميذ كثيرون .. كنا نعد على أصابع اليد .. ابن العمدة وابن شيخ البلد ، وأنا وأخى ، وتلميذ خامس لا أكاد أذكر من هو .

والطريق أيام الربيع والخريف كان معتما جدا ، خصوصا أثناء العودة ، فقد كنا نطلق العنان للهو الصبيان ونحن عائدون . أما فى فصل الشتاء فقد كان الذهاب إلى المدرسة صباح كل يوم عملا لا يخلو مما يشغل البال .

وكان أبى صاحب دكان البقالة الأساسى فى القرية الصغيرة ، ولذلك استطاع أن يبعث بى أناوأخى إلى المدرسة . غير أن ابن العمدة كان يركب حمارا فارها فى الأيام الشاتية وقد يركب خلفه ابن شيخ البلد ، وكان هذا يستلزم أن يتبعهما خادم ليعود بالحمار لأن القرية الكبيرة التى تمتعت بالمدرسة الأولية لم يكن فيها « خان » تنزل فيه الحمير .

ولذلك تبدو مشكلتى أنا وأخى صعبة معقدة . فقد كان انتقالنا يستلزم ركوبة وتابعا . وكثيرا ما كان خادم ابن العمدة يعود بقافلة من الحمير الخالية من الركاب إذا تصادف وذهبنا جميعا إلى المدرسة ، لكنه يحدث أن يقع بينى وبينه خلاف فيتعذر حل المشكلة ، وفى الفترة الأخيرة تزحلق بنا الحمار فانخلع مفصل رسغه فنزلت عنه أنا وأخى فى اليوم الموحل وقفلنا راجعين . هو أمامنا يعرج ونحن وراءه نخوض الطين ، والفلاحون الذين يلقوننا فى الطريق يتوجون المنظر بضحكة غليظة .

أنا وأخى توأمان ولدنا فى بطن واحد ، ويكاد الناظر إلينا لا يفرق بيننا إلا

بعد تدقيق . غير أن طباعنا كانت مختلفة . وكانت أمى تعلق على ذلك فى كل مناسبة مندّدة بخرافة الوراثة .

كنت أنا وهو ، قد خلقنا فى ظرف واحد وتحت ظل جو واحد ولكننا بعد الميلاد تباينت ميولنا ..

ففى الليلة السابقة لهذا اليوم الذى سأحدثك عنه ، خرج أخى إلى الدكان ليحضر بكرة من الخيط الأبيض لتلفق بها أمى بعض ملابسنا . وعاد يوحوح وكفه مكورة على بكرة الخيط ، وأمسك كف أمه ووضعها على رأسه :

ـــ آه .. يا أمه .. الدنيا تمطر فى الخارج .. والسماء فيها سحاب كثير ..

وضحكت أنا فى حذر ، وكنت بجانب كرسى عليه مصباح ريفى أؤدى بعض واجباتى المدرسية . وفهمت أمى ما يعنيه هذا الصغير من الحكاية ، إنه يبشر بأن الأرض ستصبح موحلة وبأننا لن نذهب غدا إلى المدرسة ، ويمهد الطريق للاعتذار عند الصباح .

ونمنا وأصبحنا ..

ولما خرجت إلى ساحة الدار وألقيت نظرة على الجزء العادى من السقف وجدت أرضه مبلولة ، ورفعت بصرى إلى فوق فإذا الحطب مغسول وبعض عيدانه يقطر منه الماء . لكن السماء كانت مصحية ليس فيها ما ينذر بخطر جديد .

ودخلت فأفطرت . وكان الوجوم باديا على أخى وهو يأكل . فى يده فطيرة من دقيق الذرة يبلع فتاتها بالشاى ، وأمى على معرفة بما فى نفسينا كأننا وعاءان من الزجاج نشف عما بداخلنا .

ولبسنا أحذيتنا ، وهى أهم ما يلبس فى الريف . ولففنا رأسينا بالتلافيع ، ثم وقفنا نتلفت .

كان الحمار لا يزال مصابا لا يستطيع أن يسير فى الأوحال . وأكدت لنا أمنا أن عوائق الطريق ليست كثيرة ، وأنها رأت كثيرا من الناس يخرجون بالمواشى إلى الحقول ، وبعض النساء يعدن بجرار الماء مملوءة من الترعة .

لما رأت فى عينى إخلاصا حقيقيا فى الذهاب إلى المدرسة لم تعر أخى المطرق إلى الأرض أى اهتمام ، ووجهت حديثها إلى :

ـــ أنا متأكدة أنكما ستصلان بسهولة .. وعلى كل حال إذا رأيتما أن عوائق الطريق أكبر مما تتصور .. فـ ..ارجعا ..

وهزت كتفها وبدت نظرتها لا تؤيد رضاها . وخرجت أنا وأخى إلى عرض الطريق .

كانت عادتنا أن نسير منحدرين ، وغالبا ما كان كل منا يتأبط ذراع الآخر . لكن أخى مشى فى هذا اليوم متأخرا عنى بضعة أمتار ، وكلما حثثته على الإسراع وقف وبكى ثم مسح دمعه بكمه أو بهداب التلفيعة . كان يريد أن يضيع الوقت وكنت أعلم ذلك .

وكان الطريق لزجا . لم يكن كثير الأوحال لكنه كان مدعاة للزلل ، وسرت .: وهو من خلفى كل منا يتأبط أدواته ويشمر أذيال جلبابه . ولما انتصفت المسافة بدت لعينى عقبة حقيقية كانت كفيلة بأن ترد أكثر التلاميذ اجتهادا .

هى بقعة من الطريق منخفضة المستوى العام ، كنا نلاحظ أن مياه الترعة تغمرها فى كل مناسبة ، على رأس حقل لفلاح مهمل ، حول الغرق المستمر جزءا كثيرا من حقله إلى أرض سبخة لا تنبت إلا النزر اليسير .

وكانت هذه البقعة أشبه بمستنقع من الطين ، خالية من الشجر والمسارب ، والحقل من تحتها مزروع بالقمح الذى روى حديثا .

وبدت أرض الطريق هناك سوداء كالحة مكسوة بحراشيف كأنها مصباح ينذر بالشر المستطير كل من يوقظه من النوم .

وانفرجت أسارير أخى .. كف عن البكاء ووقف مبتسما ، ووقفت أنا أنقل نظراتى منه إلى الأرض ومن الأرض إليه كأننى أسأله ماذا أفعل . ومرت فترة صمت تجمع فيها شىء من السحاب نحو الشمال،وأخذت حقول القمح تميد مع هواء الصبح كأنها لجة خضراء .. ووحوح أخى فى مبالغة ونظر نحو القرية وقال :

ـــ لنرجع . إننا سنغرق فى الطين .. وهناك سحاب ممطر . وأشار بيده نحو الشمال .

ودون أن أنظر إليه خلعت حذائى ووضعته فى حجرى مع بقية الأدوات وأخذت أخوض الطين ، حتى وصلت إلى منتصف العقبة فانغرست وصرت أترنح ، عندئذ سمعت ضحكته فشجعنى على مواصلة المشى حتى خرجت تماما ، ولما أصبحت الأوحال تفصل كلا منا عن الآخر رأيته يعدو بكل ما يطيق راجعا إلى القرية .

⁂ ⁂ ⁂

كان السحاب يجتمع ، والطريق خاليا من الناس .. وأحسست يومئذ أننى شىء ضائع بين الحقول ، ولم أعاود لبس حذائى ... أخذت أجرى حافيا لأصل قبل دقة الجرس ، وأمدتنى الحركة بدفء غير عادى فأحسست بلذة ، خصوصا لأننى سأعمل شيئا خارقا لم يقدر عليه تلاميذ بلدنا ، فأحظى بشرف ذهابى دونهم إلى المدرسة فى ذلك اليوم الممطر .

وأخذت مبانى القرية تلوح لعينى شيئا فشيئا . وكانت الحيطان المطلية

بالجير تبدو مخططة بغير نظام بخطوط من الطين الذائب كأنها دموع الشمع ، ومبنى المدرسة يبدو زاهيا أكثر من كل دار حوله بحيث تعرفها العين الرمداء .

و لم أر على الطريق تلاميذ فى سبيلهم إلى الذهاب ، فاستنبطت أن الوقت متأخر ، لكننى تذكرت أننى لم أسمع دقة جرس ، لا شك أن الوقت لم يفت بعد لأن الحقول التى عبرتها كانت ساكنة تكاد تسمع فيها النبات وهو يتنفس ، و لم أسمع الجرس وهو يدق .

وعلى الرغم من كل شيء جددت فى السير ، واعترضتنى بحيرة من الماء صنعها المطر فخضتها بلا مبالاة ، فى الوقت الذى بدأ الرذاذ فيه يسقط على وجهى .

وهنا دق الجرس .

ومن عادتنا فى الأيام المطيرة أن ندخل إلى الفصول بلا طابور ، لأن أرض الحوش تكون موحلة فى الغالب .

وأخذت أجرى وكأنما بناء المدرسة يجرى نحو الجنوب خطوة كلما خطوت إليه من الشمال خطوة ، كأن المسافة محفوظة لا تتغير .

ودخلت من الباب وأنا ألهث ، وسمعت صوت المدرسين يستفتح العمل و لم يكن فى الفصول ضجيج مما يدل على أن العمل قد استتب ، وقابلنى أول من قابلنى فراش المدرسة فخطف التلفيحة من على رأسى حتى لا أدخل بها . وولجت الفصل بمنظر مضحك ، حذاء موحل وملابس ملوثة وأنفاس لا هثة ووجه خائف وكحة تقطع لهثان أنفاسى .

ولما استأذنت على الباب بالطريقة المعروفة وقع ما لم يكن فى حسابى ، فقد كنت متخيلا أن المدرس سيلقانى بالتكريم لأننى فعلت فى هذا اليوم العابس ما لم يفعله أحد من تلاميذ قريتنا ، لكن المدرس قابلنى بوجه مثل وجه السماء

فى ذلك اليوم ومزاج من بات طوال الليل يعانى آلام أضراسه. وحيانى بضربة مسطرة على كتفى وضربة أخرى على مقعدتى وثالثة على فخذى من الخلف .

فلما جلست على درجى انخرطت فى بكاء لم يستطع أحد سده ، كنت فى الحقيقة ألوم نفسى وأحسد الكسالى والكذابين الذين لم يلقوا عناء ، ولا جحودا ، وأبكى بحرقة لخيبة ظنى وضياع مجهودى .

وصالحنى المدرس بعطف نوعى فلم أكف عن البكاء، وعندئذ بادر إلى اتهامى بأننى أقطع عليه الطريق بما أفعل لكى أحول بينه وبين عقابى إذا لم أكن حللت واجب الحساب ، وأخذ الكراسة وحملق فيها ، وعندئذ ابتسم ووضعها أمامى على الدرج وعاد يربت على ، فقد كانت المسائل كلها محلولة .

ومسحت دموعى بكمى وعاد إلى الهدوء . سكنت نفسى بعد أن نالت مكافأة على عملها الآخر ، على حل الواجبات الحسابية ، مع أننى لم ألق فيها من المشقة بعض ما لقيته فى قطع الطريق إلى المدرسة ، وقد نلت عليه عقابا .

سنوات عشناها

لم تنم المدينة تلك الليلة ..

كل فرد فيها بات يفحص ذكرياته ويستعيد حادثة أو عدة حوادث يشارك فى أقرب فرد إليه فى بعض ما يفكر فيه . وقد يقوم إلى النافذة فيلقى نظرة على البحر . وارتفع القمر الوليد على الأفق الغربى بعد غياب الشمس وابتسم للمدينة ساعتين أو أكثر ثم هبط . وظل الناس ساهرين .

كل منهم كان يريد أن يخرج إلى الشارع بعد مشرق الشمس مباشرة ليرى ماذا عسى أن يكون شكل هذا النهار . هل سيكون يوما كبقية الأيام ترتفع شمسه على الأفق فى سكون طبيعى بلا جلبة ولا ضوضاء أم أن له طريقة أخرى ؟ مما لا شك فيه أن الكواكب ستؤدى عملها بطريقتها التى لا تتغير . لكن الناس هم الذين تغيروا .

وكان الحاج أمين راقدا فى فراشه فى المسكن الصغير من الحى الشعبى فى المدينة تجلس عند قدميه على نفس الفراش زوجته الحاجة « نفيسة » وقد ثقل رأسها تحت ضغط الأفكار . لعل الرجل فى ساعاته الأخيرة . إنه يعانى أمراض الشيخوخة منذ ثلاثة أعوام . تحملها ماشيا ثم تحملها راقدا . ثم ناء بالحمل فلم يعد يحتملها حتى وهو راقد ..

وارتاعت الزوجة لفكرة أن زوجها سيرحل ويسبقها إلى العالم الثانى فتظل هى وحيدة . حقيقة أن لها ولدين أحدهما فى القاهرة وهو الكبير ، لكنه عاق لا يسأل ، وها هو ذا أبوه يحتضر لكنه لم يأت بعد ، والثانى يقيم معهم فى المدينة فى مسكن قريب فى آخر الحارة . أما بنتها فقد أدركها الترمل منذ أربع

سنوات تماما .

وأطرقت الزوجة ومدت يدها تتحسس أقدام الحاج أمين تحت الغطاء الخفيف فى الجو الحار ، وأخذت تدلك القدم لتعيد شيئا من النشاط إلى الجسم المتعب .

وارتفعت فى هذه الحالة أصوات ضجيج عال تشوبه ضحكات من المواطنين الذين لم يناموا ، فاستفاق الحاج أمين قليلا وأدار رأسه نحو الشباك المفتوح الذى يدخل عليه نسيم البحر فلا يجد ما يحركه من الستائر ، ثم نظر إلى زوجته وعلى شفتيه ظل ابتسامة قائلا :

ـــ آ .. أظن الناس لن يناموا هذه الليلة !!

لكنها ردت بشفقة وقلق :

ـــ وأنت يا حاج أمين .. هل نمت ؟

وأغمض عينيه كأنه نائم : كان فى الحقيقة يستعيد ذكرياته كما يفعل كل فرد فى هذه المدينة .. يوم خرج بعد مطلع الشمس معتمدا على الله ليفتح دكانه ، وودعته على السلم زوجته «نفيسة» وابنته المتزوجة التى جاءت إليه بعد مقتل زوجها . كانت فى ثياب الحداد واقفة على رأس السلم وعلى كتفها رضيعة وفى عينيها دموع ودعت لأبيها بالسلامة فهو يدور مع منحنى السلم فى ذلك الوقت الذى عادت فيه أمها ودخلت إلى الصالة .

إن الحاج أمين لم يكن ذاهبا إلا .. ليفتح دكان البقالة .. لكن الواقع الغريب أنه لم يكن هناك فرق كبير بين عمله هذا وعمل الذاهب إلى ميدان القتال ، وهو بعد ذلك رجل فى الخامسة والستين ضعيف مكدود . تهالك كل شىء فيه بفعل الزمن إلا قلبه ، فإنه كان قويا من نفحة الإيمان التى غمرته .

وفى « بور سعيد » يومئذ وقعت أعمال كثيرة . بث المصريون الذين

يقاتلون الإنجليز فى قلوب أعدائهم رعبا غريبا . جعلهم طول الليل يطلقون رصاصهم على الأشباح فى الوقت الذى كان الفدائيون فيه يتسللون إلى معسكراتهم فيصنعون العجائب . وتهتز المدينة الصغيرة على انفجار كبير .

وبعد أن يخيم الصمت ويلتئم صدع الظلام الذى شقه الحريق ، يعود رصاصهم المذعور يدوى فى ظلمة الليل .. آحادا وجماعات .

وتوقفت أفكار الحاج أمين لأن ضجيج الجمهور الثمل بالفرحة عاد فارتفع ، وكأنما نسى الحاج أمين الزمان والمكان فسأل زوجته « نفيسة» التى كانت تدلك له قدميه :

ـــ هيه .. وماذا أيضا ؟!

ـــ الناس .. نفس الناس الذين تحدثت عنهم ، هل نمت يا حاج أمين ؟

وابتسم لها وسكت . ودخل عالمه من جديد . وجاس خلاله فى متاهات وظلمات حتى عاد تفكيره إلى منطقة النور مرة أخرى .

وكان الإنجليز فى ذلك الوقت من سنة ١٩٥٢ مؤمنين أنهم يقاتلون « ظواهر الطبيعة » .. لقد قاتلوا المصريين قبل ذلك فلم يروا فيهم هذه القوة .

وحجز التجار عنهم المؤونة وترك العمال لهم مصانعهم ، وكلما استبد بهم الجوع نزلوا إلى المدينة فى هيئة عصابات مسلحة تسطو على المتاجر المفتوحة فتنهبها تحت السلاح .

وفى اليوم الذى نزل فيه الحاج أمين ليفتح دكان البقالة ، وابنته تودعه على السلم وتذكر مقتل زوجها فى أحد أعمال الفدائيين ـــ التقى الحاج أمين بالقدر مع إحدى العصابات المسلحة .

تزاحم الأهلون على باب الدكان يشترون مطالب يومهم فى أقصر مدة قبل أن يقفل دكانه ويعود بسلام . لكن سيارة « جيب » وقفت على مقربة منهم



وتوقفت أفكار الحاج أمين لأن ضجيج الجمهور الثمل بالفرحة عاد فارتفع

وهبط منها ثلاثة من الجنود . وزحفوا بانتظام عسكرى رائع إلى دكان بقالة الحاج أمين ، ولم يتفرق الناس بل ظلوا واقفين ، ونظر الشيخ المسن إلى علب السردين والمربى والتونة وهى تعبأ فى الأكياس وظلله الوجوم فترة وجيزة ، والمواطنين العزل ليس فى أيديهم ما يدفعون به « الحديد » اللهم إلا نظرات كانوا يتبادلونها كلها استفسار واستصغار .

ووقف التاجر مذعورا فى وسط الدكان وفى يده سكينة الحلاوة ، وقلب نصلها ونظر فيه ووارها بين ثيابه ثم فكر ..

هل يطعن واحدا منهم ؟!

وأتاه الجواب الصريح الواضح بنفس السرعة التى تنهب بها الأشياء من دكانه ، وهو أن ألف رصاصة ستمزق أحشاء كل الواقفين وهو فى أولهم .. فوضع السكين على أقرب رف وانخرط يضحك .. وكان ضحكا غريبا اغرورقت له عيناه .. وأجابه بعض الأهلين بالضحك وأجابه بعضهم بالبكاء . ولما استمر فى ضحكه وتقليب كفيه فهم الناهبون مغزى ضحكه .. إنه ضحك هستيرى ما فى ذلك شك .. أليست هذه العلب والسلع والسجاير والأرغفة مال أسرة — قد تكون كبيرة — تأكل من ربحه ؟!

فأخذتهم الشفقة لأنه عجوز .. لقد تجاوز حدود الأدب حقيقة بضحكاته تلك ولكن لا داعى لقتله .. إنه قتيل بلا رصاص فلا داعى للإجهاز عليه . وخفت العقوبة إلى ضربه .. قنبلة يدوية هى عبارة عن علبة من علب المربى قذفت بها يد أحد الجنود فى وجه الحاج أمين فاستقرت على عينه اليمنى ..

وعلا ضجيج الناس فى الشارع ، وحمل الليل صوت أحد المواطنين غناء من تأليفه وتلحينه : « مع السلامة يا واكلنى .. مع السلامة يا شاربنى .. مع

السلامة .. ألف سلامة !! » .

ومرة ثالثة سأل الحاج أمين :

ـــ آه .. ما هذا الضجيج ؟ إن الناس لن يناموا هذه الليلة .

فأجابت زوجته فى وله :

ـــ وأنت !؟ .. هل نمت ؟!

وعادت تدلك قدميه فى حركة آلية غير واعية ولا مرتبة .. وابتسم الحاج أمين ووضع يده على عينه اليمنى . نعم عينه اليمنى ..

ثم نظر إلى زوجته بعينه اليسرى ثم عاد إلى أحلامه . ودخل فى المتاهات والظلمات ثم ما لبث تيار أفكاره أن تدفق فى النور :

آه .. ومنذ ذلك التاريخ وهو بعين واحدة ، لقد أخذت المقاومة إحدى عينيه ، وأخذت زوج ابنته ، وأخذت معظم رأس ماله .

وأخذت الأيام تمر وهو راقد تحت العلاج لا يدرى ماذا صنع الله به ، لكن عينه التى بقيت له رأت كفاحا أقوى من الذى فقد فيه عينه ، فحققت له أمنية كان يدعو بها عقب كل صلاة هى أن يرى هؤلاء الطغاة وهم يرحلون عن أرض وطنه . بعينه الواحدة !! ..

وبكى الحاج أمين يومئذ وهو جالس على حصيرة الصلاة .. ونزلت الدموع من عينه اليسرى !! وتصور أنه سيرى خوذات وجنودا يتجهون إلى البحر .. ظهورهم إلى مصر والشعب من ورائهم فرحان يهلل ، فقال الرجل فى نفسه :

ـــ آه .. لو رأيت هذه بعينى التى بقيت لى لاستطعت بعد ذلك أن أرى بها الشاطىء الثانى وأنا واقف فى الميناء .

وتقدمت خطى الليل وكانت الغيبوبة تتثاقل على الحاج أمين شيئا فشيئا، وامرأته

تدلك رجليه وهو لا يحس بكفها . وأخيرا دخل ابنه عائدا من القاهرة فى القطار الأخير .. وتنبه له أبوه وقال له :

ـــ هل جئت يا بنى ؟! .. حمدا لله على السلامة .. هل أنت الذى كنت تغنى ؟

كان الصوت ينبعث منذ قليل فى أذنيه بحيث لا يعرف مصدره . « مع السلامة يا واكلنى .. مع السلامة يا شاربنى .. مع السلامة .. ألف سلامة » لكنها أومأت له !!

وعادت اليقظة فدبت فى أوصال الحاج أمين إلى فترة وجيزة . قال وهو بكامل وعيه وأعز قواه :

ـــ كم الساعة الآن ؟ آه .. لا يزال الوقت مبكرا .. إذا طلع النهار .. فإنى .. سأرى رحيل الإنجليز بعينى الواحدة .. هذه .. هذه !! « وأشار إليها بسبابته كأنما ليؤكد شيئا مشكوكا فيه » .

ثم سأل :

ـــ وأين سليمان ابنى ؟

ـــ آت حالا .

ولم يشاءوا أن يقولوا له إن زوجته فى عسر ، لأنها تعانى آلام المخاض .. إنها تلد .

ودخل الحاج أمين فى عالمه الغامض مرة أخرى . وثقل رأس زوجته جدا وأطرقت جدا وهى تدلك له قدميه ، ثم كفت فجأة ، ونظر الرجل وطلب منهم أن يفتحوا الشباك بإشارة من يده .. والشباك مفتوح .

وأخيرا انصب الغناء فى أذنه « مع السلامة .. مع السلامة » .

وكان الصوت يبعد ، ويبعد ، ويبعد .. حتى صار صدى ، ثم انقطع

الصدى .

وأشرقت شمس اليوم التالى فارتفع الضجيج فى الشوارع . كانت مدينة « بور سعيد » هى الثغر الوحيد الذى لقى هذا الشرف . جلا عنه آخر جندى أجنبى فأعلنت الحكومة نظافة الأرض ..

لكن الحاج أمين لم يشهد هذا الصباح وإن شم نسيم الحرية قبل أن يموت ، وكان جميلا أن يراه كما تمنى .. لكن المهم أن مصر قد رأته . وهذا هو القانون !!

وفى ذلك اليوم فتح اثنان من موظفى الدولة سجلين ، كل واحد ومنهما فتح سجلا وكتب ما يلى :

الاسم : أمين العبد .

تاريخ الوفاة : ١٣ يونية سنة ١٩٥٦ .

وكتب الآخر :

اسم المولود : منصور سليمان أمين ..

تاريخ الميلاد : ١٣ يونية سنة ١٩٥٦ .

وابتسم الموظف بعد أن فرغ من الكتابة ونظر إلى شجرة خضراء وقال : « ولد مع مولد الحرية .. هنيئا له .. إنه من جيل محظوظ » .

ولو كان هذان الموظفان جالسين على مكتبين متجاورين لأدركا فورا أن هذين الحادثين وقعا لأسرة واحدة ، تسكن حارة واحدة . وأن الدمع والابتسامة كانا من حظها ، وأنها شهدت آخر الليل وأول النهار ، وأن هذا الميلاد لم يكن ميلاد طفل واحد ، لكنه ميلاد وطن .

رسالة الغرام

كان الصباح مشرق الشمس فى ذلك اليوم من فصل الشتاء ، تسلل منها شعاع حذر فاخترق شيش النافذة بطريقة ما حيث عبر إلى فراش بكير أفندى الذى كان لا يزال راقدا حتى الساعة التاسعة من صباح اليوم .

لماذا يستعجل الخروج ؟! لا شىء يدعو مطلقا إلى العجلة : ومنذ أيام الصبا الأول كان هذا طبع « بكير » .. « فى التأنى السلامة ولو فاتك القطار » .. هكذا كان دائما على الرغم من أن رئيسه فى المصلحة عاقبه بالخصم مرة بعد مرة ، وكان يلقى هذه العقوبة ضاحكا ويقول : « هذا خير من حوادث السرعة » .

وفى الصيف الماضى أحيل بكير أفندى إلى المعاش . فخرج قوى البنية مشرق الوجه كابسا طربوشه كالعادة على رأسه . ومنذ تجاوزه عهد العمل وهو يمشى محملقا فى الأرض .. ناظرا تحت قدميه كأنما يخشى أن تزل قدمه .

يتناول طعام فطوره فى البيت — وحيدا — بيد الخادمة بعد يقظته من النوم . إنه لا يزال ساكنا مع ولديه العازبين الشابين بعد أن تفرق المتزوجون .. وماتت زوجته . من أجل ذلك فإنه يغادر البيت بعد الفطور مباشرة . يخترق الطريق المألوف المشجر إلى القهوة الوحيدة فى الشارع الرئيسى من الضاحية . فى جيبه الجانبى علبة التبغ وجريدة الصباح والعصا المعوجة تتأرجح كالبندول فى ذراعه اليمنى أو يدق بها على الأرض .. كاد الرجل يحفظ منعرجات الطريق وترتيب بيوته وألوان حوائطها وأبوابها فى نصف سنة اجتاز فيها هذا الطريق .

وكان الأسبوع الماضى كثير المطر شديد البرد فاحتبس فى البيت لم يفارقه . وأحس — وكأنما هذا لأول مرة — بأن الدنيا فراغ ، وأن وحشتها أشد مما تحتمله نفسه .. حتى تجرأ على غير عادته فى التفكير وسأل نفسه عن فائدة الشيخوخة ؟؟ واتسعت ابتسامة غير ذكية فى وجهه الطويل وقلب كفيه ونظر إلى عروقهما البارزة فى ظهرهما .. ثم تذكر الماضى .. أيام كانت أم حسنى زوجته تضغط عليهما بكفيها معا لتسمع منه شبه آهة ، وفى ليالى الشتاء الغابرة أيام الصبا والعز والاجتماع وابتسامة الزمن .. حين كانا يجلسان والمدفأة بينهما ،وعليها أبو الفرو وأربع أكف مبسوطة على ارتفاع يسير منها .. كف من يديه ثم بعدها كف من يديها ثم .. كف ثم كف .. آه .. على الترتيب .

وتنهد وقال « آه .. على الترتيب » ثم نظر فى الساعة فألفاها التاسعة . ونظر إلى الزجاج فرآه مضيئا بأشعة الشمس فتحرك فى سريره وقلبه ملىء بالحسرة .

لأول مرة — وبعنف — يذكر ما فات . إن كتاب الماضى ينفتح فى نفوسنا فجأة بحركة لا ندريها ، وعندما نقرأ صفحاته نرجع فى أعمارنا بظهورنا .. فى رحلة لا يطول أمدها لكنها تؤكد حتى للذين يتجاوزون المائة أن حلقات العمر شديدة الاتصال بعضها ببعض .

وتنهد بعد الفطور . وتنهد وهو يهبط السلم .. وتنهد وهو يأخذ الطريق من أوله لكى يصل إلى القهوة .

كانت الضاحية نظيفة ناصعة كأنها أحد طيور الماء خارجا من فوره من البحيرة .. والشمس تفرش الأرض وتتخلل الشجر .. وحتى بعض العصافير كان يزقزق لكن بكير أفندى كان يتنهد .. وحيدا ! . وفجأة وقف

مهسمرا فى مكانه . ونظر فى كل اتجاه ليرى هل يراه أحد . ثم انحنى على الأرض والتقط المظروف الصغير الأزرق النظيف الصافى ووضعه فى جيبه ثم سار فى طريقه ، يخمن ماذا فيه ؟!

وفى القهوة طلب فنجالا من الشاى ، وأخرج الرسالة من جيبه وعاد يفحصها من جديد . لم يكن على ظرفها عنوان لكن بداخلها ورقة سميكة من المحتمل أن تكون خطابين . ومن المحال أن تكف نفس أى انسان عن التطلع إلى الداخل فى مثل هذا الموقف . نفض الغلاف برفق شديد حيث وجد رسالة من نفس اللون فى ورقتين اثنتين فاحت منهما رائحة الحب قبل أن يقرأ منهما حرفا ..

لماذا دق قلب بكير أفندى بعنف عندما وقع بصره على السطر الأول من الرسالة وقرأ : « حبيبتى هناء .. » ؟

إن كلمات الحب منذ قديم تثير فيه إحساسا داخليا يعجز دائما أن يعبر عنه بالكلام . ولذلك كان يعجب من براعة المؤلفين الذين ينسجون حوار الحب بين بطلين على الشاشة ، ومنذ قديم أيضا وهو يعبر عن إحساسه بالحب بحركة من الحركات .. وكم نهرته أم حسنى — رحمها الله — على أنه يضربها بكفه بين كتفيها إذا ما أعجبه منها شىء كوسيلة للتعبير عن الإعجاب . ولذلك فإنه بعد أن قرأ كلمة الحب فى هذه الرسالة الموجهة إلى مجهولة وضع ساقا على ساق وأخذ يهز رجليه فى الفضاء كأنه يحرك مدوس ماكينة :

« حبيبتى هناء . هذه خامس صورة من الخطاب بعد أن مزقته أربع مرات . إننى أنتهز فرصة هجوع أبى وأمى فأنحى كتبى وأشرع فى الكتابة إليك . أنا لا أفهم شيئا مما أقرأ ومن المحال أن أفهم . أن الكوب الملآن لا يملأ إلا إذا أفرغ أولا ، وأنت يا حبيبتى قد ملأت فراغى فألهيتنى عن كل شىء . لا أستطيع أن

أتسلق بعد اليوم سور حديقتكم من الخلف بعد أن أطلقتم فى الفيللا كلبا جديدا غير الذى سرق . هل تعرفين من الذى سرقه ؟! خمنى .

إن بوابكم الأعور رجل غليظ القلب ، إنه يذكرنى بالمداحين الغجر الذين يطوفون الريف فى مواسم الحصاد مع كل منهم حمار وخرج وطار . ماذا يعجب والدك فى هذه السحنة ؟ كيف يكون « رضوان الجنة » فى مثل هذه الجفاوة والدمامة والسفالة أيضا ؟ ليتنى أملك التصرف فى عينه الثانية .

إن خادمتك بنت لطيفة . ليتكم تؤخرون زواجها حتى يقضى الله فى أمرنا بشىء .. هل تعرفين النخلة النامية على مقربة من نافذتك ؟ كم تخيلت أننى أتسلقها لألقى نظرة على مخدعك من حيث لا تشعرين ، وعلى فكرة أنا أريد أن أنقطع عن الدراسة لأتخصص فى الموسيقى ، ولكن أبى يعارض جدا .

« بلى شوقى بكلمة تكتبينها ما دمنا عاجزين عن اللقاء » .

الإمضاء « حلمى »

هذا ملخص الرسالة .

واستغرق بكير أفندى فى تفكير عميق . وللمرة الأولى منذ سنتين طلب « شيشة » . إنه يريد أن يتنفس بعمق وينفخ بشدة . والحوادث إذا انفصلت عن ذاتنا رأينا كل جوانبها وحكمنا عليها بجور .

ولم يذكر بكير أفندى أنه وهو فى سن الشباب .. ومن الجائز أنه كان فى مثل عمر صاحب هذه الرسالة ، انزوى خلف باب البيت فى الدهليز تحت الظلام .. كان الليل خريفا والساعة بعد العاشرة وكانت هناك قطتان تتشاجران على مقربة من بكير الشاب، وعلا بينهما الشجار حتى بدد سكون الليل ، وفى هذه اللحظة دخل أحد السكان فخاف أن يدوس على إحدى القطتين فزجرهما فلم تنزجرا . فأشعل عودا من الكبريت فوقع بصره على

قط آخر وقطة أخرى كانا عند قبوة السلم يمارسان عملية حب .

لم يستطع أن يتصور « هناك » هذه إلا فى ملابس « سكينة » بنته المقيمة فى سعادة مع زوجها فى طنطا . ولعل سكينة قد فعلت مثلما فعلت هناء — الآن — إن ممارسة الحب على أشكال وألوان ، فمنا من يوقد من ناره شمعة ليمشى فى ضوئها ، ومنا من يحرق أنامله بلمسته ، ومنا من يلقى بنفسه فى حريقه .. فهناك من يستضيئون ، وهناك من يحترقون ..

وعبرت كل هذه الخواطر على رأسه وهو ينفخ الدخان ويقلب الجمر على الحجر ويدق بقدمه كأنه يدوس على فرملة .. وكان الدفء يملأ أرجاء الضاحية من حوله والنهار كأنه تخلف عن فصل الربيع ..

وقام بكير أفندى من مكانه فجأة .. وكبس الطربوش وعلق العصا ونظر إلى الأرض التى داسها ببطء شديد منذ درجت عليها قدماه ، وانسرب تحت أشعة الشمس فى الضاحية وهو يقول فى نفسه:

« إن الشاب من سكان المنطقة ما فى ذلك من شك .. ومن المحتمل أن يكون الخطاب فى أحد كتبه أو إحدى كراساته وسقط منها . ومن المحتمل أن يكون مسكنه قريبا من مسكنها . أما البواب اللعين الذى عذب قلبه فإننى سأعرفه من بين ألف رجل .. أعور وفى هيئة المداحين الذين يجولون الريف فى أيام الحصاد » .

ثم سأل نفسه : « لكن ما هذا الفضول ؟! أليس من الأفضل أن يمزق هذه الرسالة ويسلم قصاصاتها للهواء ؟ » لكن .. إنه يملك وقتا .

وأخذ يضرب فى الضاحية .

وعلى مقربة من نهاية شارع حيث تنفسح الأرض على هيئة ساحة رملية كبيرة لمح الرجل المطلوب .



وعبرت كل هذه الخواطر على رأسه وهو ينفخ الدخان ويقلب
الجمر على الحجر ويدق بقدمه كأنه يدوس على فرملة ..

ووقف برهة حيث ألقى نظرة وابتسم فى نفسه حين رأى الوصف مطابقا تماما . لكن عينه السليمة كان فيها يقظة الصقر كأنما أراد الله أن يمنحه بواسطتها قوة العينين ، ومنها تنبثق شخصية فذة . صعيدية جبارة تجسم معنى كلمة « حارس » فى جلباب واسع الأكمام ، طويل كأنه شبح ، خفيف الحركة كأنه ظل .

كان يكنس فضلات الحديقة بمكنسة طويلة اليد ، وعلى أحد جانبى الباب كان صندوق الخطابات يحمل البطاقة .. لم يستطع بكير أفندى أن يقرأها . وفى الداخل كان كلب ينبح وعلى مقربة من كشك البواب كانت خادمة تترقص فى مشيتها فى ذراعها سلة . ورأى الشيخ أشخاص الرواية كأنما ظهروا على مسرح .. لكن البطلة لم تظهر بعد . فسار بعيدا عن البيت ثم غاب قليلا وعاد .

وعلى مقربة من السور الخلفى رأى فتاة تطل .. كانت تتأمل الحديقة الخالية من الأزهار والنخلة القائمة على مقربة من شرفتها وعلى وجهها أحلام هذا العمر . فخمن أنها « هناء » . فنظر إليها وهز رأسه وتحسس الرسالة فى جيبه الجانبى وكان قد وضعها فى ظرف جديد وأعاد لصقها .

وابتعد قليلا ثم عاد . وكان الهواء قد بدأ ينشط .. والأوراق المغسولة تخشخش فى ترف ، وبعض الأزهار الوحشية على نباتات الأسوار كانت تتساقط ، لم يكن عند باب الفيللا أحد. فتوقف وجاءه خاطر خبيث . لو أن الفتاة كانت خارجة من الباب لتقدم منها وسلمها الرسالة ! لكنه ضحك من نفسه . وعلى كل حال فإنها لم تخرج . إنها جميلة ما أروعها تحت جنح الظلام حين يخف الشجر من حولها ويتنفس النبات وهى بين ذراعيه !.. ولكن آه .. ما أفظع هذا ؟! أليس من الجائز أن تشتعل النار فى ملابس البريئة من حيث

لا تدرى ، ويفر « حلمى » متوكلا على الله تاركا جمالها للأحزان ؟. آه .. كل هذا جائز .. وابتعد قليلا ثم عاد .. فرأى الخادمة خارجة تترقص بأرداف كبيرة وصدر مترهل . وتحسس الرسالة فى جيبه ونظر إلى وجه الخادمة ثم كف فجأة وسار فى وجهة أخرى وابتعد قليلا ثم عاد .

كان الشارع ساكنا تماما .. وسحاب رمادى اللون بدأ يتولد عند الأفق الشمالى الغربى .. وريح بليلة فيها نداوة الأمطار تملأ رائحتها أنوف المارة . وباب الفيلا مقفل والبواب لا تراه العين.. والكلب لا أثر له .. والنوافذ المطلة على ناحية الباب مقفلة كلها .. وهمس خفيف كأنه صفير يأتى من على البعد يتصاعد من لفائف الشجر .. وتحرك بكير أفندى والرسالة فى يده .. وتحرك .. وتقدم ، وتقدم حتى وضعها فى صندوق خطابات والد الفتاة وانصرف فى هدوء المذهولين .. وفى منتصف الليل استيقظ على صوت بكاء .. بكاء لفتاة فى السادسة عشرة تنتحب من تأنيب والديها .. كان الصوت صادرا من أعماقه هو .. فلما فتح عينيه .. استغفر الله وتنهد وقرأ آية الكرسى ونام .

فى شبابه تصرف كما يتصرف العشاق .. وفى شيخوخته تصرف كما يتصرف الآباء ، فأين الحقيقة بين الاثنين ؟!

الغريم القديم

يعتبر الدور السابع فى العمارة الضخمة القائمة وسط الميدان هو نهاية الخط بالنسبة لحركة المصعد القديم .. لذلك فإن سكان الدور الثامن يجدون أنفسهم مضطرين لمواصلة صعودهم بواسطة السلم الحجرى الضيق الذى يفضى أخيرا إلى سطح واسع الأرجاء هو ظهر العمارة . مبلط ببلاط غير مصقول كبير القطع تنعكس عليه أشعة الشمس وقت الصيف كما تنعكس على « الملاحات » .. وقد يتخلف ماء المطر فى بعض زواياه شتاء .. وتجد فيه رياح شهر أمشير ملعبا حسنا حيث تدور بما قد يخلفه من فضلات سكان الحجرات المرصوصة على خط مستقيم لتطل كلها على الميدان .

وفى الليل ، عندما يكون الفصل شتاء أو الوقت متأخرا ، لا تستطيع أن تمنع القشعريرة التى تسرى فى بدنك إذا ألقيت بالنظرة الأولى على السطح وأنت عند نهاية السلم .. يخيل إليك أن قوى خفية تتربص فيه خصوصا إذا كانت أبواب الحجرات مقفلة . وذلك لأنك فى خلاء حقيقى يشبه الصحراء وهو خلاء الجو فكل النوافذ والسطوح والناس والحركة تحت .. تحت جدا .

أما سكان هذه الغرف فهم من الطبقة الفقيرة التى تمتاز بالطموح .. وتأنف من قذارة الأحياء الوطنية وتفضل الحجرة الواحدة النظيفة على الشقة المسقوفة بالخشب ذات الشراعات الزجاجية والأبواب العالية .. ويندر أن يكون بين هذه الطبقة التى تختار سطوح العمارات أصحاب أولاد . معظمهم من الطلبة أو موظفى الدرجة الثامنة العزاب الأنيقون أو من العمال حديثى السن الذين يضعون بند المسكن فى الاعتبار الأول من ميزانية الدخل .

وأنا أعرف من سكان هذا السطح ثلاثة :

أولهم طالب قصير ربعة فى زهرة عمره . فى عمق عينيه أشياء لا يمكن أن يدرك مغزاها . بالغ اليقظة وإن بدا فى عينيه الشرود . فيه علامات مميزة هى شعره الكث الغليظ البنى اللون كأنه تبغ مفروم . يحمل بإبطه حقيبة وخرائط ملفوفة ومسطرة طويلة مما يدل على أنه طالب فى الهندسة .. وقلما يكلم أحدا وهو فى المصعد لكنه يتفرس الوجوه كأنه يرسمها .

والثانى .. فتاة سمراء جافة فقيرة .. لا تتناسب بتاتا مع بشرتها الكابية تلك الألوان الزاهية التى تختارها للملابس . ولعلها عاملة فى مشغل أو مصنع حلوى .. وتسكن مع أمها المسنة فى إحدى الحجرات .

أما الثالث فهو شاب أنيق لا يعين وجهه نوع وظيفته .. يخرج وقت الصباح وفى يده حقيبة ويعود بعد وقت من الليل . على شفته السفلى صفة المترفع ولو أن الوداعة تبدو عامة على مظهره . ولم أستطع أن أعرف مهنته بالضبط لكننى رجحت أنه طالب فى كلية الطب .

ثم عدت فاستبعدت هذا الخاطر عندما رأيت زوجته ، فرجح لدى أنه عامل . فقد كانت فتاة من بنات البلد من النوع الذى تتركز ملذات الحياة فى نظره — فى خلوة الليل . ومعظم الأعمال التى تؤديها فى النهاية تكون فى خدمة تلك الساعات المنتظرة . شديدة العناية بنفسها كأنها لا تزال عروسا .. ممطوطة العود تتلوى كأنها حية ، وكانت تؤنس ساعات وحدتها بالغناء فى حجرتها أو تتسلى بالإشراف على الشارع من إحدى زوايا السطح البعيدة .. تفوح منها دائما رائحة « الفل » وقلما تراها وفمها خاليا من « اللبان » .

وإذا تصادف واعترض طريقها أحد الطلبة من سكان السطوح وشرح لها

رغبته بنظرة ، زحزحته عن طريقها بنظرة .. قاسية ، لكنها عامرة بالأنوثة . لذلك لم يسمع عنها أحد ما يريب .

وظلت سيرتها فى نقاوة « الفل » الذى تفضل عطره باستمرار .

وظلت هذه المرأة اللينة المطمعة المخيفة حلم كل الذين يسكنون السطح . وحسدتها الأم العجوز التى تقيم مع بنتها وتمنت لو أن عينا من العيون التى تلتف حولها شغلت ببنتها يوما ما .

ثم عرفت أن ذلك الشاب الأنيق زوج الحسناء يشتغل حلاقا . رأيته مصادفة جالسا على باب أحد الصالونات فى شارع رئيسى ، عليه معطف أبيض كأنه طبيب . وفى يده صحيفة الصباح يطالع فيها أخبار السينما . وكان مشغولا بما يقرأ فلم يلحظ مرورى عليه . وتذكرت زوجته التى تظل وحيدة طول النهار ثم تستقبله أول الليل ، ثم تودعه فى الصباح وهكذا ..

ثم علمت بعد مدة أنه انتقل من مسكنه . وعلمت بعد مدة أن طالب الهندسة سكن فى إحدى الضواحى .. وعلمت بعد مدة ثالثة أن العاملة السمراء الجافة العود انتقلت إلى حى الحسين ..وكدت أنسى هؤلاء الناس ولعل بعضهم كاد ينسى بعضا إلا الأسطى الحلاق فإنه ظل يذكرهم جميعا .

كان جالسا ذات يوم أمام باب الصالون وفى يده جريدة فأفاق على صوت امرأة تناديه باسمه ، ورفع إليها بصره فأدرك أنه يعرفها . إنها جارته السمراء الجافة التى تسكن مع أمها .. قال مبهوتا :

— خيرا يا سيدتى ؟

— خيرا .. كلمة بسيطة من فضلك .

وسار معها ، ظن بعض زملائه أن فى الأمر غراما وأن للناس فيما يعشقون مذاهب . فأخذوا ينكتون فى الوقت الذى كان هو فيه يكاد أن يبكى :

— قولى كلاما غير هذا يا سيدتى .

— ما الداعى لأن أكذب عليك ؟ راقبها تعرف الأمر بنفسك .

— أشكرك .

وشيعها بنظرة ساخطة ، ودعا عليها أن تكون طعاما لأول ترام يلقاها .

وفى ذلك اليوم خيل إليه أنه على وشك أن يذبح كل شاب يجلس أمامه على الكرسى إذا ما وضع « الموسى » على عنقه . نقمة عامة كنقمة آلهة اليونان فى الأساطير حين كانوا يسخرون الرياح للتخريب . وحاول أن يكون مع زوجته أكثر من عادى فى الليالى التالية :

ورأى من الزوجة الحسناء أكثر مما كان يرى من قبل . كانت لا تدع فى الخلية شهدا إلا بذلته له . وكان يؤخذ بالحلاوة ثم يذكر الوشاية المريعة التى نقلتها إليه الفتاة السمراء ثم تنهد فى أسى .

وقابله فى السطوح صباح يوم طالب الهندسة بعوده المربع وعينيه الذاهلتين وشعره البنى الذى يشبه الدخان المفروم . فخيل إليه أن ينقض عليه ويزهق روحه ثم يستريح .

وانتفض الزوج فجأة ذات ليلة وهو فى عمله وقرر الذهاب إلى البيت . كادت إحدى السيارات تدهمه وهو يعبر الشارع .. وقال له عربجى كارو : « حاسب يا حمار » .. ولعنته سيدة أنيقة حين صدمها بكتفه . كل ذلك وهو لا يشعر .

وصعد السلم الحجرى لاهثا يتلصص .

كان مقدرا أنه سيرى شيئا ما فور وصوله .

وكان الوقت ليلا والفصل خريفا وفى الجو رطوبة قليلها منعش كجرعة الخمر . وعلى رأس السلم وقف يتلفت فرأى فى الزاوية البعيدة للسطح المربع

شبحين منطبعين على السماء كما تنطبع الأشياء على الأفق . وكانا فى عناق . ثم انفصلا واتكآ على السور ينظران إلى تحت . ولما اقترب منهما أحسا بوقع أقدامه وفاحت فى الظلام من امرأته رائحة الفل فلم يسأل من هناك لأنه عرفها .

وأمسك بتلابيبها يقودها إلى الغرفة الواقعة فى نهاية السطح . وكان الآخر يجرى نحو الشارع وسمع دبدبة أقدامه وهو يهبط السلم الحجرى .

ولم يكن هناك نقاش طويل .. كان يلكمها وهى تستعطفه بنظراتها . ويكيل لها السباب وهى تشجعه على ذلك . ولما قسا على عودها الطرى وأوسعه بدل الحنان ذلا تخلصت وانسحبت إلى مكان بعيد وهى تقول له :

ــ أنا أستحق .. لكنك مثلت بى .. سأريحك .

ورآها تحاول أن تشعل فى نفسها النار فلم يصدق .. لكن المحاولة صارت حقيقة بعد دقائق .. وجرت الأمور بأسرع مما كان يتصور سكان هذا السطح من الحجرات .

وقررت فى المستشفى أن موقد الجاز اشتعل فيها ، ثم ماتت وهى تستغفره .

ولم يستطع الشاب أن ينساها ولا أن ينسى الفتاة السمراء التى كانت تحاول إغراء الطالب ، فلما فشلت حاولت أن تسجل نجاحا فى ميدان آخر ، ولم ينس السطح الواسع ولا خلاءه المربع ولا رائحة الليل يشوبها شذى الفل وشبحين منطبعين على أديم السماء فى العناق القصير .

* * *

وبعد ثلاث سنوات من هذه الحادثة كان طبيعيا أن تتغير الأشياء .. ويصبح الطالب مهندسا .. ويعرض للزوج فى الطريق نساء يذكرنه بالزواج

وبالتى فقدها فى وقت واحد .. لكنه يظل بلا زوجة .

ثم تحركت الذكريات فجأة بظهور محورها الأول .

وجده أمامه وجها لوجه . بشعره الكث الغليظ البنى الذى يشبه التبغ المفروم . ومن عجيب الصدف أن « دور العمل » يحتم على الغريم أن يجلس أمام غريمه .

وجعل كل منهما يسترق النظر إلى صاحبه خلال المرآة .. وضربات المقص فى يد الزوج تنبىء عن القلق . والشعر البنى الكث الثقيل كأنه مستعص على التهذيب وفى الوقت الذى فتح فيه المهندس مجلة أسبوعية يقرأ فيها قصة حب ورائحة فل تفوح من منديله ، كان غريمه يسترجع تفاصيل الحوادث :

« لقد تسلل هذا إلى هنائنا فأفسده كما تتسلل الدودة إلى الثمرة .. » .

وانبعثت من الراديو موسيقى حماسية جعلته يحرك إحدى قدميه بطريقة توائم اللحن .. وحتى ضربات المقص أخذت تزداد حدة .. ثم رجع لأفكاره :

« هى .. ماتت » .

ورأى نفسه يمط شفتيه ويهز كتفه. وألقى نظرة على الصفحة فى يد المهندس فألفاه لا يزال منهمكا فى قصة الحب .

فعاد يقول :

« آه .. يظهر أن قصص الحب فى حياته لا تنتهى أبدا .. كلها خراب .. والغريب أنه يفر .. هى ماتت وأنا .. شقيت .. وهو .. » .

ومط شفته وهز كتفيه مرة أخرى ورأى خيال نفسه فى المرآة على هذه الحال . أما الثانى فلم يغير وضعه . نفس البرود والهدوء والشرود فى العينين

وقصة الحب فى يده .

وبعد الموسيقى . انبعث صوت نشيد . فيه أصوات غليظة كأنما شرختها الحماسة . ودقات كأنها طبل من بعيد .

وملأ الحماس تقس الغريم ، و « الموسى » فى يده والذكرى فى رأسه والصالون خال إلا منهما . خلت كل الكراسى إلا من المهندس ، وأخيرا نطق الحلاق :

— ازيك يا باشمهندس .

فرفع إليه عينا قوية . وعاد إلى قصة الحب يكمل قراءتها . قال الحلاق :

— ألا تذكرنى ؟

فرد عليه باكتراث قليل :

— ربما .. لا .

كان يجرى « الموسى » على عنقه من الخلف . فسأله :

— ولا .. هى ؟

— لا.

ولا السطوح ؟

— لا .

فهمس فى أذنه بشىء من الحدة :

— هيه .. بعد أن ننتهى سأذكرك بكل شىء .

وانقطعت الموسيقى من الراديو .. فصمت كأنه مات .. وقبل ذلك بوهلة دخل الناس وأخذت العيون تتلفت فى حذر وترقب .. وما أن فرغ المهندس من لبس سترته حتى كان الظلام يسود الشارع وصفارة الإنذار تردد صوتا متقطعا رهيبا .. وأصوات أبواب المتاجر كلها تقرقع وهى تشد إلى

تحت .

وكان الجالسون يقولون : إن فرقا من قوات الشعب ستسافر غدا إلى الشمال . إلى منطقة القنال لأن قتالا يوشك أن يقع . وتذكر الحلاق بذلته الكاكى وبندقيته البيضاء والموسيقى العسكرية تشدو أمام الفرقة ونـاسا يحاولون أن يهبطوا أرض مصر ويجب أن يقتلوا ..

فألقى على المهندس نظرة فاترة وهو يخرج متسللا من الباب ، إنه عرف فى هذه اللحظة أين يكون الغريم الأول .

شَرارة نار

فى الطريق إلى السوق لم يكن الزوج يحكى أى حكاية ..

كان صامتا على غير عادته .. يسبق امرأته بعدة خطوات .. والشمس لم تشرق بعد ، وجماعات من العصافير نبهها الدفء تسف على الحقول .. تطير بها فرحة لعلها لم تكن فى قلب المرأة ..

لقد كانت تتعارك مع زوجها طول الليل .. بسبب ذكريات عميقة من الخير أن تنسى .. استرجعتها وهى سائرة فأحست بطعم الملح فى حلقها لأنها شرقت بالدموع .

كان هو لا يزال أمامها . ترقبه عيناها بوله وحب على الرغم من القسوة التى أحالت فراشها إلى شوك .. وظلت طول الليل وهو نائم تبكى فى صمت وتعد أخشاب السقف ، حتى سمعت صياح الديوك فنهضت قبل أن يتسلل النور وأيقظته ليذهبا معا إلى السوق .

وعندما وصلت أفكارها إلى هذا الحد كانا قد وصلا إلى منعرج طريق ، وقابلها شخص يعرفهما فألقى عليهما تحية الصباح ثم وقف وسلم ، وأحست الزوجة وهو يضغط على كفها وينظر فى عينيها أن على شفته سؤالا من المحال أن يتجسم . كان يسألها :

« هل أنت سعيدة ؟؟ » .

وانصرف الرجل وواصل الزوجان سيرهما .. وعادت هى بأفكارها إلى الليلة الماضية عندما وضعت العشاء أمامه وهى مليئة باللهفة . فطير من القمح الجديد وطبق ملآن بالعسل ، وجلست تأكل .. لكنها أحست وهى تجاذبه

الحديث أن شيئا غامضا يظلل عليه . و لم تعره اهتماما كبيرا فى بادىء الأمر فقد قدرت أن المفتاح السحرى الذى تديره المرأة فى قلب كل رجل قادر على أن يزحزح الرصد فيتوهج الحب ويملأ المكان عطر غامض ، كالذى يدخل عليهما من المصراع المفتوح من النافذة عندما يتقدم الليل فيسألها وتسأله عن مصدر العطر وهما لا يعلمان أنه من داخلهما .

أما فى الليلة الماضية فقد كان الزوج يأكل وهو واجم . وبدت عملية الطعام ثقيلة جافة ، ولكنها هى التى أخذت تفتح باب الحديث . فقالت وهى تتكلف ابتسامه :

« هل تعلم يا صادق أننى ارتكبت جريمة صباح اليوم ؟! » .

و لم يتوقف عن المضغ و لم يقل شيئا ، كل ما عمله ساعتئذ أن نظر إليها بعينين نصف مغمضتين تشيع منهما نظرة ملامة قوية قصيرة الأمد ، أشبه شىء بقبضة جبارة دفعت بها إلى الوراء ولو أن اللقمة التى كانت بيدها كانت مغموسة فى العسل فقد أحست عكس ذلك .. لكنها قررت أن تقاوم فتركت ابتسامتها تتحول إلى ضحكة فيها مرح ووعد ونبرة حب . ثم استطردت تقول :

ـــ لم تسألنى يا حبيبى أى جريمة ارتكبتها .. ألا يجب أن تسأل ؟

فرد بلا مبالاة :

ـــ قولى !

فقالت وقد أحست بأن قلبها ينقبض :

ـــ جلبابك الصوفى القديم احترق اليوم فى عدة مواضع من شرارة نار .

فردد آخر كلماتها :

ـــ من شرارة نار ؟!

— نعم .. من شرارة نار !!

— هيه ..

واستطرد يمضغ . لم يتكلم . كان يغمس الفطيرة فى العسل ويقذف به إلى فمه وهى تنظر وتسمع صوت المضغ . وأحست أن هذا شيء بشع . ولأول مرة أدركت القروية بما لا يمكن تفسيره أن مراقبة من يأكل عمل كريه . قد لا يحس المرء كراهيته وهو يراقب بقرة مثلا . وكان الصمت شاملا كأن كل الأفواه فى القرية مشغولة بالأكل فلا وقت للكلام . أو كأن الناس نائمون . وزقزق طائر مختنق على شجرة قريبة تفهم الأذن العادية من صوته أن أقوى منه قد سطا عليه . وتنهدت الزوجة وهتفت تسأل :

— صادق .. هل أحزنك هذا الأمر ؟!

ولم يجبها منه إلا صوت المضغ .. ثم كركرة الماء وهو يتدفق إلى فمه من القلة التي يشرب منها . وعاود الأكل فأحست أنه من الضرورى أن تعتذر :

— صادق .. كان الجلباب بين الملابس التى ستغسل على مقربة من الكانون .. وفجأة .. فرقع فى النار شيء .. خفت .. جريت بعيدا .. أحسست أن إحدى عينى ستذهب إن بقيت فى مكانى ، خفت يا صادق .. آ .. ألا تسمع ؟!.

— سامع !!

— آ .. خفت أن تكون رصاصة قد دست فى الوقود .. كانت قطعة من الحجر أو الملح فى النار .. ونسيت كل شيء .. وبعد مدة اكتشفت أن شرارة سقطت فى طيات الثوب .. آه .. آ ..

ولما لم يرد انبثقت منها ضحكة طويلة .. هستيرية تتغلب بها على المآسى .

ولكن الزوج لم يخرج من جموده . وظللت وجهه كآبة سوداء . وشعرت الزوجة كأنها أمام رجل غريب . ولكنها أحست بين هذه المخاوف بفرحة شوهاء . فرحة من تكاد توقن بأن إعراض زوجها لهذا السبب التى قصت قصته لا لسبب خارجي ربما كان أخطر وهى التى .. وهى التى ..

وكفت عن التفكير وسكتت . لكن الزوج تكلم محتجا :

— يعنى .. احترق الجلباب !

— إنه قديم . .

— ها ها ها اى .. قديم ؟!.. ومن قال إن القديم رخيص ؟! « وأشار بيديه معا إشارة مخزية » القديم غال !!

⁂ ⁂ ⁂

— « القديم غال ؟! » .

سألت نفسها ورددتها وهى سائرة خلفه على الطريق ذاهبين إلى السوق « إنه أهاننى » وكانت تذرف الدمع من جديد « إن الدليل الحاسم على الإخلاص شيء لا وجود له . كيف أثبت لصادق أننى أحبه .. آه .. هذا ذنبى » ثم جرها من أفكارها صوته وهو يناديها : « لقد قاربنا دخول السوق » .. وعندئذ سارت إلى جواره . كان ذلك ضروريا حتى لا تتوه منه أو يتوه منها . وأوصته بهمس عذب أن يحترس ففى جيبه أربعون جنيها ثمن البقرة التى سيشترونها اليوم . ولما دلفا إلى السوق استطاعت الزوجة لفترة طويلة أن تنسى حوادث الليلة الماضية لأنها كانت تتأمل الوجوه الكثيرة التى تزدحم حولها فى السوق .

⁂ ⁂ ⁂

ولم يدخلا القرية ثانيا إلا بعد هبوط الظلام .. وكان التوفيق الظاهر فى هذه الصفقة سببا فى صفاء الليلة فنام الزوجان سعيدين ، واستيقظت هى فى الصباح الباكر فحلبت اللبن وجهزت له فطورا شهيا بالسكر والحليب . وخرج هو لبعض شئونه وذهبت هى بالبقرة إلى الحقل .

ظلت ترعى طول النهار وتغنى . ولم يكن أحد يسمعها ، حتى وإن كان هناك من يسمعها فهى لا تراه تائهة بين أعواد الذرة تراقب جلبابها المشجر وجسمها النادى .. ذلك الذى فتن « صادق » .. ترنمت بأغنية حب .. آه .. كم تحبه .. وبلعت ريقها وتذكرت غضبه منذ ليلة حدثها حديثا ملفوفا عن الجلباب القديم .. « ماذا كان يقصد ؟! .. ليس هذا .. إنه غير معقول .. إنه يعلم أننى ضحيت من أجله هو .. يعلم أنه ليس أغلى منه » .

وعادت تغنى بين أعواد الذرة وهى تجز الحشائش ، لكنها اختارت هذه المرة — بلا وعى — أغنية حزينة .

وانقضى اليوم .. ومالت الشمس إلى المغيب . وأخذت قوافل الماشية فى العودة أمام الفلاحين إلى الدور .. وسحبت الزوجة بقرتها وعادت .

لكن حدثا لم يخطر على بالها وقع فجأة : عندما كانت تعبر القنطرة المؤدية إلى القرية جمحت البقرة كما يجمح الثور ، وجاذبت الزوجة الحبل وأفلتت منها ..

واستهانت الزوجة بالمسألة بادىء الأمر .. ولكنها أحست بشعور غامض أنها أهم مما تتصور .. فقد كانت البقرة تجرى برعونة .

ولم يستطع أحد أن يحجزها ، فجرت هى وراءها حتى لا تضل عنها .

وغابت فى أحد المتعرجات والليل يهبط ، فلم تدر الزوجة إلى أين ذهبت البقرة .

ومثل هذه الحوادث فى القرى ليست عظيمة الأهمية ، فإن العثور على

المفقود ممكن على أى حال . وبعد مدة أمكن للزوجة أن تستدل على مكانها ، فقد دخلت إحدى الدور وكانت مفتوحة الباب والتف حولها فلاح شاب وأمه وأبوه وهم يهتفون ويصفقون بدهشة من رأى ميتا يبعث :

« أليست هذه بقرتنا .. تعالى يا أمى فأنت تعرفينها » .

ولمست الأم ضرعها وهتفت مؤكدة :

« يا إلهى .. لقد بعناها منذ سنة فكيف عرفت الطريق إلى دارنا؟! من هذا الذى اشتراها من قريتنا ؟! بارك الله له فيها .. انظروا إلى الوفاء فى قلب الحيوان .. » .

واستطردت الأم :

« تعال يا عبده فانظر الوفاء » .

وتنهدت تنهدا له معناه .

وعلى باب الدار كانت صاحبة البقرة واقفة بعد أن عرفت مكانها ، كانت مترددة فى دق الباب تذرف دمعها فى صمت ، وتأتى إلى أذنها همسات غير مسموعة من زوجها صادق : « القديم غال » . لقد قيل له إنها تكلمه فى الطريق .. هذا الشاب صاحب هذه الدار كان صاحب هذه البقرة منذ سنة وزوج هذه المرأة منذ سنتين ..

ثم أحبت « صادق » فهجرته هو وتزوجت حبيبها ثم باع البقرة فى السوق . وها هى ذى قد اشترتها من جديد ، ولما سلكت الزوجة القديمة والبقرة القديمة الطريق العام ، هربت البقرة إلى وطنها الأول ..

وكان على الزوجة أن تعمل شيئا ..

فتقدمت وطرقت الباب ، وخرج الزوج القديم والحماة وهى تحمل مصباحا ريفيا وينظران فى لهفة إلى الطارق ، وعندما وقع بصرهما عليها شهقا فى صمت ثم رجعا وقاداها إليها فسحبتها بعنف ، ومشت البقرة تئن وتتلفت ، أما الزوجة فقد كان قلبها يبكى .

باب العالم الجديد

لم أكن أتوقع أن هذا اليوم سيكون مشحونا بالعواطف، وأننا مهما امتد العمر بنا تستطيع حادثة صغيرة أن تعود بنا إلى الوراء عشرات السنين ، فنعيش بكياننا كله واقعة يعيشها غيرنا ، ويستبد بنا الشعور إلى درجة يتلاشى فيها الإحساس بالذات . وهذا هو ما وقع لى بالذات صباح أمس وأنا أرتدى ملابسى للخروج إلى عملى ساعة الصباح ، وفى الحجرة المقابلة المفتوحة الباب حوار مبهم يأتى إلى بعضه ويغيب عنى معظمه . كان قائما بين ابنى وزوجتى . تتخيله أحيانا ضحكات من الأم وحينا صوت تهديد .. وفى لحظات أخرى كنت أسمع صوت ابنى مستعطفا .. رقيقا حنونا يلين الحجر . وفى لحظة تالية كنت أسمعه ضاحكا متحمسا يشوب حماسته خوف من يساق إلى القتال للمرة الأولى .

أما أنا فكثيرا ما كنت أتجمد أمام المرأة وأنسى نفسى .. أنسى أننى ألبس لأذهب إلى عملى ، لأن قلبى كان يتابع الحوادث فى الحجرة القريبة .. ثم انتهيت من عملى بشكل ما وجلست فى الصالة أنتظر ابنى وأنا أحملق فى عداد النور و « مسبحة » نسيتها أمى على أحد الكراسى من الليلة الماضية .

وخرجت من الحجرة البعيدة فى الشقة زوجتى بملابس البيت وهى ممسكة بذراع ابنى. وقابلتهما بنظراتى وأنا أتأهب للقيام وأنظر فى ساعة معصمى بقلق حتى لا أتأخر عن عملى .. وكانت زوجتى تكتم ضحكها وكان ابنى يحبس دموعه ولو أننى لاحظت على أحد خديه قطرة من الدموع مثل حبة من الندى نسى أن يمسحها قبل خروجه .

وامتزجت فى تصرفاتى الصرامة بالحب والقسوة بالحنان فى الوهلة التى مددت يدى إلى ابنى لنخرج معا . ورفع إلى يديه وهو جامد لا يتحرك ووضع يديه الاثنتين فى جيوبه و لم يتحرك.. كنا واقفين عند الباب نؤلف نحن الثلاثة دائرة إن أمكن ذلك .. ورأيت فى عينيه السوداوين توسلا لم أره فى حياتى ، أحسست أن قلبى قد استجاب له ألف مرة ولو أن الحياة ترفضه بعنف .. وعضت زوجتى شفتها بأسنانها فى أزمة عاطفية وتركتنا ودخلت . وبقيت أنا وهو وجها لوجه .. عيناه ترسلان توسلا يستجيب له قلبى وترفضه الحياة ، كل ملامحه تنذر بقرب البكاء .. وبدا الضعف والقوة على وجه الطفل فى هذه اللحظة كسلاح جارح يدعونا لأن نقبله ، وناديته فلم يرد . ومددت إليه يدى فلم يمد لى يدا . فأخذت أتأمل فرحة الأمس وترحة اليوم .. عندما ذهبت أنا وهو لشراء الملابس الجديدة اللازمة للمدرسة وكان يلبسها كل يوم مرتين ويقف أمام المرآة ويتبختر فى فرحة انتظار العيد .. المريلة ذات الحزام والقميص الأبيض .. كانت كل هذه الأشياء بالنسبة إليه فاتنة جدا حتى أمس .. أما فى هذا الصباح فقد صارت مثل عدة الحرب .. وناديته ثانيا فلم يرد . فقلت له لكى أغريه : « ألا تحب أن تكون رجلا مثل بابا وتلبس البنطلون وتحمل ساعة ؟ » .

أثرت فى نفسه هذه الأمانى التى طالما تمناها طوال الصيف على أمل أن تفيدنى فى حل الأزمة ويتحرك للذهاب إلى المدرسة لأول مرة فى حياته . لكنه أنكر كل هذا فى عناد . وأعدت عليه السؤال فهز رأسه نفيا . فقلت له :

« كل الأطفال يذهبون إلى المدرسة ليكبروا ، وكل طفل لا يذهب إلى المدرسة لا يكبر أبدا . يظل طفلا قصيرا كل الحياة . ومستحيل أن يلبس البنطلون الطويل مثل بابا ، فما رأيك ؟ » .

وهنا بدا التفكير فى عينيه السوداوين ، وحرك شفتيه ولم يقل شيئا . ومد لى يده فى صمت فاتجهنا إلى الباب .. وكانت أمه متوارية فى أحد الأبواب تنظر من فتحته الحوادث الكبيرة ! .. بالنسبة للطفل !! أما أمى فكانت لا تزال نائمة لأن آلام الروماتزم أرقتها طول الليل . وفى اللحظة التى كنا نتجه فيها إلى الباب .. أنا بأملى ، وابنى باستسلامه ، جاءت من الداخل صيحة ملهوفة من أمى : « أحمد !! .. أحمد !! .. هل خرج أحمد قبل أن أراه ؟! » .

وفى هذه اللحظة تهاوى كل البناء .. فانسكبت الدموع التى كانت واقفة فى عيون الطفل،وهتف من خلال شهقاته بطريقة أشعرتنى أننى أشهر سلاحا قاتلا فى وجه ولدى ، هتف أحمد : « الحقينى .. يا .. نينة !! » ثم أمسك فى كرسى ثقيل لا يريد أن يتحرك . وجاءت من الداخل زوجتى مستغرقة فى ضحكة هنية صافية ، فحملت الطفل إلى جدته التى لا تستطيع مغادرة الفراش ، وتبعتهما أنا إلى حجرة «المداولة» هناك حيث تنام أمى . فوجدت أحمد يبلل خدها بدموعه ويعدها هو .. هو شخصيا بالحلوى والشيكولاطة . فلما أحس أن جدته تراوغه نظر بعينيه السوداوين كمن يفكر : وما لبث أن أشاح عنى ببصره حين رأى الأمل مفقودا عندى . وصعد إلى فراش جدته وطوق عنقها ثم أكب على أذنها يهمس لها بما لم نسمعه ، همسات كانت تقطعها الشهقات استغرقت بعدها أمى فى ضحك شديد واحتضنت الطفل تقبله حتى كادت تكتم أنفاسه ، ثم باحت لنا بالسر من خلال دموعها وضحكها :

« سيفعل لى ما عجز أبوه عن فعله ، سيدفع لى نفقات الحج ، بشرط ألا أدعكم تذهبون به إلى المدرسة » .

وأمسكت أنا بيده بقوة واتجهت به إلى الباب ، وهناك قبل اللحظة الحاسمة .. قبل أن نقفل وراءنا باب الشقة الذى يمثل عالمه بأسره ، طلب منى أن يقبل أمه ، وكنت متصورا ماذا سيحدث ، لكننى لم أجد مفرا من التسليم ، وما لبثت القبلة أن تحولت إلى عناق أشبه بالحصار الذى لا يفك . وأملى الطفل علينا شروطا جديدة هى أن تذهب أمه معنا .. لا بد أن نذهب إلى المدرسة نحن الثلاثة ، وبدأ يسكب دموعه فى صمت ، فى استغراق كاستغراق الكبار حين يعتقدون أن الحديث عن المأساة معاد ، وأنه لا شيء يجدى إلا الدموع .

ودخلنا إلى الصالة ولبست أمه لنخرج . وأمسك كل منا بكف من يديه الصغيرتين وسار بيننا يتلفت .. ينظر إلى الحوائط كأن عليها رسوما لا نراها . وعند باب الشقة وهو بين أبيه وأمه وقف من جديد ونظر إلى الداخل ولمعت نظراته بمعان كبيرة .. كبيرة بمقياس الإحساس وكبيرة بمقياس السن . ونادى أحمد مثل رجل مكتمل الرجولة بصوت مرتفع شرخته الدموع نادى على أمى وهو واقف بينى وبين أمه :

— « نينة .. نينة !! » .

فجاء ردها من الداخل مرتجفا جائشا حنونا :

— «نعم يا حبيبى» !

— « أنا مخاصمك .. مخاصمك » .

فلم يأتنا رد . فنظر إلى وجهى ثم إلى وجه أمه ، وقال بإصرار شديد :

— « يا للا بأه » .

وخطا إلى خارج الشقة بين أبويه وأقفلنا وراءنا الباب .. باب شقتنا فى نظرنا وباب العالم فى مقاييس الصغير .. وكان يخبط الأرض بحذائه فى كل

خطوة كأنه يؤكد لنفسه أنه يتقدم .. يمشى .. إلى عالم جديد لا يشجع مثله أن غيره قد ذهبوا إليه ويذهبون كل يوم !! .

لم نكن نتكلم ، لا أنا ولا هى ولا الطفل ، كان الصمت أضمن بلا أدنى شك ، وكنت واثقا أن المشكلة لم تنته بعد . ستتجدد المتاعب عند باب المدرسة .

لكن الذهول الذى كسا وجه الطفل من المجموع الذى كان يطن كالنحل فى الخلية لم يترك له فرصة للخوف ولا الاحتجاج ولا الهرب ولا حتى بجرد الكلام ، نعم واعترانى إحساس مثل إحساسه وأنا أخوض بين هذه الأزهار وأتأمل وجوه بنين وبنات سيمسكون بدفة المستقبل حين أكون أنا وأمه وجيلى وجيلها فى فراش الشيخوخة .

وسمعنا أطفالا تبكى لكن الغريب فى الأمر أن أحمد كف عن البكاء .. لم أستطع أن أستشف حقيقة نفسه وهو يغالب نوازعه ، لكننى أدركت أن شيئا واحدا هو الذى ألجأه إلى هذا الموقف .. وهو أن حصنه الكبير كف عن الدفاع .. جدته .. أسلمته بيدها للمدرسة على الرغم من تكلفه لها بنفقات الحج .

وعندما دخل باب الفصل قبلناه أنا وأمه . كان هو صامتا .. تبادلنا الموقف ، تحولنا إلى أطفال .. كادت دموعنا تغلبنا .. فحاولت أنا أن ألون الموقف بلون مفرح فسألته :

— هل تريد شيئا يا أحمد ؟

فهز رأسه بكبرياء من سئم من نفاق الناس ، وقال هامسا :

— لا ..

فقلت له :

ـــ عال .. مع السلامة !!.

وضحكنا وعيوننا تدمع أنا وزوجتى .

وهناك .. هناك فى المكتب سألنى رئيسى :

ـــ لماذا تأخرت ؟!

فقلت له مبتسما معتذرا :

ـــ كنت أنقل اسم ابنى من دفتر لدفتر .

فزاد وجهه استفهاما .. فاستطردت :

ـــ كنت أنقل اسمه من دفتر غير المسئولين .. إلى دفتر المسئولين .. لقد دخل باب الحياة ، من باب المدرسة ..

فابتسم ..

الفهـــرست

مؤلفات الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

« ولكن يمكن الجزم منذ الآن فصاعدا بأن محمد عبد الحليم عبد الله قد فرض نفسه كروائى لدلتا مصر ؛ إنه روائى الدلتا المصرية ، أى ذلك المثلث الأخضر المعلق على خريطة القطر بواسطة أكبر مدينتين فى قارة أفريقيا ، فمن البحر الأبيض المتوسط حتى جبل المقطم ، يسبِّح عبد الحليم عبد الله لتلك الأرض الخضراء الخصيبة المليئة بالخيرات والمتناقضات أيضا : الإسكندرية والقاهرة والريف المزدحم وقد سقاها النيل .. إنه روائى الدلتا الداخلية ؛ لأنه يقودنا إلى داخل الإنسان ، سوف تكتشف فى أعماله صفحات تصف الشواطئ التى تقصفها الرياح ورمالا ساخنة هجرها الحب ، غير أنه يضفى على الإنسان قوة رائعة وسخية تسرى فيه كالنيل الذى يهب الحياة » .

من دراسة للمستشرق جوردان مونو

ترجمة سمير وهبى

ـــ **لقيطة** (ليلة غرام) : جائزة المجمع اللغوى لأحسن قصة ، جائزة وزارة الشئون لأحسن فيلم ، ترجمت إلى الفارسية .

ـــ **بعد الغروب** : قصة الفقير الموهوب يشق طريقه بالفأس فى الصخور . جائزة وزارة التربية والتعليم .

ـــ **شجرة اللبلاب** : قصة عذراء أهدت قلبها لشاب متردد شكاك . ترجمت إلى الإنجليزية .

ـــ **شمس الخريف** : ماذا تأخذ منا الحياة ؟ وماذا تعطى ؟ ، جائزة الدولة فى الأدب .

ـــ غصن الزيتون : لا تجعلنا نحب من لا يحبوننا حتى لا تشقينا بالحب مرتين يا إلٰهى . ترجم إلى الصينية .
ـــ الماضى لا يعود : (مجموعة أقاصيص)
ـــ من أجل ولدى : قصة الحب العائلى والمرأة فى صورها الأربع : أمًّا ، وزوجة ، وحبيبة ، وعشيقة .
ـــ ألوان من السعادة : (مجموعة أقاصيص) ـــ
ـــ الوشاح الأبيض : قصة حب جميل .. ولكن هل حققت الأيام مُنى المحبين ؟
ـــ سكون العاصفة : (قصة طويلة)
ـــ الضفيرة السوداء : (مجموعة أقاصيص)
ـــ الجنة العذراء : (مجموعة أقاصيص)
ـــ أشياء للذكرى : (مجموعة أقاصيص)
ـــ خيوط النور : (مجموعة أقاصيص)
ـــ حافة الجريمة : (مجموعة أقاصيص)
ـــ الباحث عن الحقيقة : (قصة طويلة)
ـــ البيت الصامت : (قصة طويلة)
ـــ أسطورة من كتاب الحب : (مجموعة أقاصيص)
ـــ للزمن بقية : (قصة طويلة)
ـــ النافذة الغربية : (مجموعة أقاصيص)
ـــ جوليت فوق سطح القمر : (مجموعة أقاصيص)
ـــ قصة لم تتم : (قصة طويلة)
ـــ الدموع الخرساء : (مجموعة أقاصيص)
ـــ لقاء بين جيلين : (لقاء المؤلف مع عمالقة القصة)
ـــ الوجه الآخر : (كاتب القصة الناقد)

رقم الإيداع ٢٠١٩
الترقيم الدولى ٨ ـ ٢٠٢ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٧٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه